كنوز الفرقان

مجلة علمية دينية ثقافية فى علوم القرآن الكريم

يصدرها

الاتحاد العام لجماعة القراء

المسجل بوزارة الشؤون برقم ٨٣٣

العددان: الأول والثانى	المحرم وصفر ١٣٦٩ أكتوبر ، نوفمبر سنة ١٩٤٩	رئيس التحرير على محمد الضباع	السنة الثانية

بسم الله الرحمن الرحيم

سؤال من مكة المكرمة

لم نفهم تعليلا معقولا من وجوب اتباع رسم المصحف العثمانى فى كتابة القرآن الكريم . فهل كان رسم المصاحف توقيفياً بمعنى أنه صلى الله عليه وسلم أمر كاتبه أن يكتب كلمة دعاء فى آية : « وما دعؤا الكفرين إلا فى ضلل » هكذا « دعؤا » بأن يضع الهمزة على واو فألف بعدها، وفى بقية القرآن « دعاء »؟ وبأن يكتب نحو : «جاءو ، وفاءو» بغير ألف بعد واو الجماعة تكتب الألف ، وهذا فى جميع الكلمات ؟

فان كان الأمر كذلك فما الدليل عليه؟ وهذا يقتضى أن النبى صلى الله عليه وسلم يعرف الحروف مع أنه أمى لا يقرأ ولا يكتب . وأيضاً إذا كان الأمر كذلك فلم يقال الرسم العثمانى ، ولا يقال الرسم التوقيفى ؟ ثم إن كان توقيفياً فما معنى قول عثمان

ابن عفان لكتاب المصاحف : إذا اختلفتم فى شىء فاكتبوه بلسان قريش إلخ ؟
وقد اختلفوا فى التابوت أيكتبونه بالتاء أم بالهاء فكتبوه بلغة قريش .

الجواب

لما كان الأصل فى المكتوب أن يكون موافقاً تمام الموافقة للمنطوق به من غير زيادة ولا نقص ولا تبديل ولا تغيير ، وجاءت المصاحف العثمانية وقد خولف فيها هذا الأصل فى حروف كثيرة لأغراض شريفة لا ينبغى العدول عنها إلى غيرها ــ عنى العلماء بحصر هذه الحروف والكلام عليها وترتيبها فى قواعد وضوابط سموها « علم الرسم العثمانى » نسبة إلى المصاحف التى كتبت بأمر عثمان رضى الله عنه ، ولو كانوا سموها ــ علم الرسم التوقيفى ــ ما كان فى ذلك بأس ولا حرج .

وللعلماء فى هذا الرسم آراء : فالجمهور على أنه توقيفى لا تجوز مخالفته ، واستدلوا لذلك بأن النبى صلى الله عليه وسلم كان له كتاب يكتبون الوحى وقد كتبوه بهذا الرسم بحضرته وأقرهم على كتابتهم ، ومضى عهده صلى الله عليه وسلم والقرآن على هذه الكتبة لم يحدث فيه تغيير ولا تبديل ؛ بل ورد أنه صلى الله عليه وسلم كان يرشد كتبة الوحى إلى رسم حروفه وكلماته ، ومن ذلك قوله صلى الله عليه وسلم لمعاوية رضى الله عنه : « ألق الدواة ، وحرف القلم ، وانصب الباء ، وفرق السين ، ولا تعور الميم ، وحسن « الله » ، ومد « الرحمن » ، وجود « الرحيم » ، وضع قلمك على أذنك اليسرى ، فانه أذكر لك » .

ورد عن زيد بن ثابت أنه قال : كنت أكتب الوحى عند رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يملى على فاذا فرغت قال اقرأه فأقرؤه فان كان فيه سقط أقامه .

ثم جاء أبو بكر فكتب القرآن بهذا الرسم فى صحف ، ثم حذا حذوه عثمان بن عفان فى خلافته ، فاستنسخ تلك الصحف فى مصاحف على تلك الكتبة ، وأقر أصحاب

النبي صلى الله عليه وسلم عمل أبي بكر وعثمان . وانتهى الأمر بعد ذلك إلى التابعين وتابعى التابعين ، فلم يخالف أحد منهم هذا الرسم ، ولم ينقل أن أحداً منهم رأى أن يستبدل به رسماً آخر من الرسوم التى حدثت فى عهد ازدهار التدوين والتأليف ، بل بقى هذا الرسم العثمانى محترماً متبعاً فى كتابة المصاحف .

ومن المقرر أن اتباع الرسول واجب فيما أمر به أو أقر عليه لقوله تعالى : « قل إن كنتم تحبون الله فاتبعونى يحببكم الله ويغفر لكم ذنوبكم » . والاهتداء بهدى الصحابة واجب ، خصوصاً الخلفاء الراشدين ، لحديث العرباض بن سارية إذ قال فيه صلى الله عليه وسلم : « فانه من يعيش منكم فسيرى اختلافاً كثيراً ، فعليكم بسنتى وسنة الخلفاء الراشدين من بعدى ، عضوا عليها بالنواجذ » .

وقد حكى إجماع الأمة على هذا الرسم غير واحد .

ففى المقنع قال أشهب : سئل مالك فقيل له أرأيت من استكتب مصحفا أترى أن يكتب على ما أحدثه الناس من الهجاء اليوم ؟ قال : لا أرى ذلك ، ولكنه يكتب على الكتبة الأولى « كتبة الوحى » قال الدانى : ولا مخالف له « يعنى مالكا » فى ذلك من علماء الأمة .

وفى شرح العقيلة لعلى القارىء بعد حكايته الأثر السابق ما نصه : والذى ذهب إليه مالك هو الحق إذ فيه بقاء الحالة الأولى إلى أن تعلمها الطبقة الأخرى بعد الأخرى ، ولا شك أن هذا هو الأحرى إذ فى خلاف ذلك تجهيل الناس بأولية ما فى الطبقة الأولى .

وقال أحمد : تحرم مخالفة خط مصحف عثمان فى واو ، أو ألف ، أو ياء ، أو غير ذلك اهـ .

وقال البيهقى فى شعب الايمان : من يكتب مصحفاً فينبغى أن يحافظ على الهجاء الذى كتبوا به تلك المصاحف ولا يخالفهم فيه ولا يغير مما كتبوه شيئا

فانهم كانوا أكثر علماً ، وأصدق قلباً ولساناً ، وأعظم أمانة منا ، فلا ينبغى أن نظن بأنفسنا استدراكا عليهم . اه .

ونقل الجعبرى وغيره إجماع الأئمة الأربعة على وجوب اتباع هذا المرسوم .

وقال الأستاذ عبد الرحمن بن القاضى المغربى بعد ذكره النقول المذكورة : ولا يجوز غير ذلك ، ولا يلتفت إلى اعتلال من خالف بقوله إن العامة لا تعرف مرسوم المصحف ويدخل عليهم الخلل فى قراءتهم فى المصحف إذا كتب على المرسوم « العثمانى » إلى آخر ما عللوا به ؛ فهذا ليس بشىء لأن من لا يعرف المرسوم من الأمة يجب عليه أن لا يقرأ فى المصحف حتى يتعلم القراءة على وجهها ويتعلم مرسوم المصحف ، فان فعل غير ذلك فقد خالف ما أجمعت عليه الأمة ، وحكمه معلوم فى الشرع الشريف ، ومن علل بشىء فهو مردود عليه لمخالفته للاجماع المتقدم . وقد تعدت هذه المفسدة إلى خلق كثير من الناس فى هذا الزمان فليحتفظ من ذلك فى حق نفسه وحق غيره . اه

وقال صاحب فتح الرحمن بعد ذكر النقول المذكورة أيضاً : فما كتبوه فى المصاحف بغير ألف فواجب أن يكتب بغير ألف ، وما كتبوه متصلا فواجب أن يكون متصلا ، وما كتبوه منفصلا فواجب أن يكتب منفصلا ، وما كتبوه بالتاء فواجب أن يكتب بالتاء ، وما كتبوه بالهاء فواجب أن يكتب بالهاء ، ومن خالف فى شىء من ذلك فقد أثم . اه

وفى المدخل لابن الحاج : ويتعين عليه « كاتب المصحف » أن يترك ما أحدثه بعض الناس فى هذا الزمان وهو أن ينسخ المصحف على غير مرسوم المصحف الذى اجتمعت عليه الأمة على ما وجد به بخط عثمان بن عفان رضى الله عنه ـ أى فى عهده . اه

وفى شرح الطحاوى : ينبغى لمن أراد كتابة القرآن أن ينظم الكلمات كما هى فى مصحف عثمان رضى الله عنه لاجماع الأمة على ذلك . اه

وفى كتاب الشفاء للقاضى عياض : وقد أجمع المسلمون أن القرآن المتلو فى جميع أقطار الأرض المكتوب فى المصحف بأيدى المسلمين مما جمعه الدفتان من أول ـ الحمد لله رب العالمين ـ إلى آخر : ـ قل أعوذ برب الناس ـ أنه كلام الله ووحيه المنزل على نبيه محمد صلى الله عليه وسلم وأن جميع ما فيه حق ، وأن من نقص حرفاً قاصداً لذلك أو بدله بحرف آخر مكانه أو زاد حرفاً مما لم يشتمل عليه المصحف الذى وقع عليه الاجماع وأجمع على أنه ليس من القرآن عامداً لكل هذا أنه كافر . اه

وأيده شراحه ، ومنهم الامامان : الملا على القارىء ، والشهاب الخفاجى ، « كلاهما من كبار الحنفية » وقالا بعد قوله أو زاد حرفاً أى كتابة أو قراءة . اه

وفى تفسير نظام الدين النيسابورى : وقال جماعة من الأئمة : إن الواجب على القراء والعلماء وأهل الكتابة أن يتبعوا هذا الرسم فى خط المصحف فانه رسم زيد بن ثابت ، وكان أمين رسول الله صلى الله عليه وسلم وكاتب وحيه . اه

وورد عن الامام مالك رضى الله عنه أنه قال : إنما ألف القرآن على ما كانوا يسمعونه من قراءة النبى صلى الله عليه وسلم . اه

وجاء عن الامام على كرم الله وجهه أنه قال : لو وليت لفعلت فى المصاحف ما فعل عثمان . اه

وذكر صاحب الأبريز عن شيخه عبد العزيز الدباغ أنه قال : رسم القرآن سر من أسرار المشاهدة ، وكمال الرفعة ، وهو صادر من النبى صلى الله عليه وسلم ، وليس للصحابة ولا لغيرهم فى رسم القرآن ولا شعرة واحدة ، وإنما هو بتوقيف من النبى صلى الله عليه وسلم ، وهو الذى أمرهم أن يكتبوه على الهيئة المعروفة ،

بزيادة الألف ونقصانها ، ونحو ذلك من الأسرار لا تهتدى إليها العقول إلا بفتح ربانى ، فكما أن نظم القرآن معجز ، فرسمه أيضاً معجز . اهـ باختصار

ومما يؤيد أنه توقيفى أيضاً قوله تعالى « إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون» فقد أخبر سبحانه وتعالى أنه تكفل بحفظ كتابه . وتواترت قراءة : رحمت ، نعمت ، سنت وأخواتها المشهورة ـ بالتاء عند الوقف . وقراءة : وسوف يؤت فى سورة النساء بسكون التاء وحذف الياء لغير جازم كذلك . وقراءة ويدع الإنسان فى سورة الاسراء ، ويمح بسورة الشورى ، وسندع بسورة العلق ، بحذف الواو فى الأفعال الثلاثة ، كذلك أيضاً خلافاً للقياس العربى المشهور فى ذلك كله ، فلو لم يكن الرسم العثمانى توقيفياً علمه جبريل عليه السلام للنبى صلى الله عليه وسلم ، لكان خبره تعالى كاذباً وهو محال . أى لو كان الرسم العثمانى غير توقيفى بأن كتبه الصحابة على ما تيسر لهم كما زعمه البعض لزم أن يكون سبحانه وتعالى أنزل هذه الكلمات : رحمت وأخواتها بالهاء ، وسوف يؤت بالياء ويدع وأختيها بالواو ، ثم كتبها الصحابة « لجهلهم بالخط يومئذ بالتاء وبحذف الياء والواو ، ثم تبعتهم الأمة « خطأ » ثلاثة عشر قرنا وتسعة وستين سنة ، فتكون الأمة من عهده صلى الله عليه وسلم إلى اليوم مجمعة على إبدال حروف بأخرى فى كلامه ليست منزلة من عنده ، وعلى حذف حروف عديدة منه ، وإذا كان كذلك كان خبره تعالى كاذباً ، وكذب خبره تعالى باطل ، فبطل ماأدى إليه ، وهو كون رسم هذه الكلمات ونظائرها بلا توقيف نبوى ، وإذا بطل هذا ثبت نقيضه ، وهو كون الرسم العثمانى توقيفياً وهو المطلوب .

وما يشعر به بعض النقول من أنه صلى الله عليه وسلم كان يعرف الحروف جنح إليه جماعة من العلماء : منهم أبو محمد الشيبانى ، وأبو ذر الهروى ، وأبو الوليد الباجى ، وأبو الفتح النيسابورى ، وغيرهم . واستدلوا لذلك بأدلة :

«منها» ما روى عن ابن أبي شيبة وغيره ما مات رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى كتب وقرأ. ونقل للشعبي فثبته وقال: سمعت أقواما يقولونه وليس في الآية ما ينافيه.

«ومنها» مارواه ابن ماجه عن أنس من قوله صلى الله عليه وسلم: رأيت ليلة أسرى بي مكتوباً على باب الجنة: الصدقة بعشر أمثالها، والقرض بثمانية عشر.

«ومنها» ماجاء في حديث قصة الحديبية من رواية ابن إسحق: فأخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم الكتاب فكتب: هذا ما قاضى عليه محمد بن عبد الله، وفي رواية وليس يحسن يكتب فكتب، وفي أخرى وليس يحسن أن يكتب فكتب، وفي أخرى بزيادة بيده بعد فكتب. ذكر هذا الحديث البخاري في صحيحه والطبري والخازن في تفسيريهما والأشخر اليمني في شرحه على بهجة الأماثل وغيرهم،

«ومنها» ماروى عن جعفر الصادق قال: كان عليه السلام يقرأ من الكتاب وإن كان لا يكتب. ذكره أبو البقاء في الكليات وأبو المكارم في المدحة الكبرى.

«ومنها» ما أسنده أبو بكر النقاش من حديث أبي كبشة السلولي أنه صلى الله عليه وسلم قرأ صحيفة لعيينة بن حصن وأخبر بمعناها. نقله أبو حيان في بحره وغيره وقالوا: وصورة كتبه إما أن يكون القلم كتب في يده أي أجراها الله به من غير قصد إلى الكتابة، وإما أن يكون علمه الله الكتابة حينئذ كما علمه أن يقرأ ولم يكن يقرأ، ويكون ذلك بزيادة في معجزته ولا يقدح في وصفه بالأمية. وقال القاضي عياض: وإن لم تصح الرواية أنه كتب فلا يبعد أن يرزق علم هذا ويمنع الكتابة والقراءة. وذكر في الشفاء أنه وردت آثار تدل على معرفته عليه السلام حروف الخط وحسن تصويرها. اه وقال الجوزي في بعض صفاته: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يكتب، ولو أراد لقدر. وفي بعض روايات البخاري: أن الرسول صلوات الله عليه قبل موته بأربعة أيام، وكان ذلك يوم الخميس، قال لهم: ائتوني بكتف أكتب لكم كتاباً لا تضلوا من

بعدى . اهـ . وقد أجابوا عن آية : « وما كنت تتلوا من قبله من كتاب » إلخ بأن قالوا : المعنى : ولا تخطه بيمينك أى من قبل تعليمك كما قال تعالى : من قبله ، فلما جاز أن يتلو جاز أن يخط ، ولا يقدح ذلك فى كونه أمياً ، وأن المعجزة أنها صفته أولا ثم جاء بعلوم لا يعلمها الأميون ، ويكون ذلك زيادة فى معجزته ، قالوا : مع أن قوله فى زيادة البخارى: ولا يحسن أن يكتب فكتب، كالنص فى أنه كتب بنفسه،ومدعى غيرذلك مجاز وحمل للكلام على مالا يفهم منه بغيرضرورة تجوز اهـ

وذهب الجمهور إلى أنه صلى الله عليه وسلم كان أمياً بالمعنى اللغوى ، وهو الذى لا يكتب ولا يقرأ المكتوب ، واحتجوا بآية: وما كنت تتلو إلخ ، وبحديث : نحن أمة أمية لا نكتب ولا نحسب ، وبأن كتبه صلى الله عليه وسلم يبطل معجزته ، وأنه يكون فى أمة أمية قامت الحجة وأفحم الجاحد وانحسمت الشبهة ، وأن المعجزات يستحيل أن يدفع بعضها بعضاً . وقالوا : إن المراد من لفظ كتب فى الحديث أنه أمر بالكتب . وقال الأبى والسنوسى : وكأن الشيخ - يعنيان القاضى عياض - يقول الحق أنه لم يكتب ، والقول بأنه كتب لا يوجد كفراً ولا فسقاً وإنما هو خطأ .

وفى المواهب : أن الأصح أنه لم يكتب بيده إذ لو كان كما قيل لنقل وتواتر لأن هذا مما تتوفر الدواعى على نقله .

وتحيل بعضهم للجمع بين أدلة الفريقين فقال الظاهر أن التعارض بين أدلتهما ظاهرى يمكن دفعه بحمل أميته صلى الله عليه وسلم على أولى حياته ، وحمل أدلة كتابة على أخراها . والله سبحانه وتعالى أعلم .

وما ذكره بعض المؤرخين من أن رسم المصحف إنما كان باصلاح من الصحابة تجوز مخالفته ، وكذلك ما نقل عن شيخ الاسلام العز بن عبد السلام من قوله لا تجوز كتابة المصحف الآن على المرسوم الأول باصطلاح الأئمة لئلا يوقع

فى تغيير من الجمال ؛ وكذا ما ذكره بعض المتأخرين من أن ما جاء من وجوب اتباع رسم المصحف إنما كان فى الصدر الأول والعلم غض حى ، وأما الآن فقد يخشى الالتباس ، وكذا ما ذكره بعضهم من قصر رسمه بالاصطلاح العثمانى على مصاحف الخواص وإباحة رسمه للعوام بالاصطلاحات الشائعة بينهم - فكل ذلك مما لا يلتفت إليه لأنه كما لا يخفى يؤدى إلى درس الرسم أو التدرج إلى تركه ، ولا ينبغى أن يترك شيء قد أحكمه السلف ، مراعاة لجهل الجاهلين ، لا سيما أنه أحد الأركان التى عليها مدار القراءة ، فضلا عما يؤدى إليه من ضياع القراءات بضياع أحد أركان القرآنية ، ومن تطرق التحريف إلى الكتاب الشريف بتغيير رسمه ومن جوازهدم كثير من علوم الأداء قياسا على هدمه بدعوى سهولة التناول للعموم

على أن فى بقاء المصحف على رسمه العثمانى فوائد كثيرة :

منها : الدلالة على الأصل فى الشكل والحروف ككتابة الحركات حروفاً باعتبار أصلها فى نحو وإيتاىٔ ذى القربى ، سأوريكم ، لأ اوضعوا وككتابة : الصلواة ، الزكواة بالواو بدل الألف .

ومنها : النص على بعض اللغات الفصيحة ككتابة هاء التأنيث بتاء مجرورة على لغة طيء ، وكحذف ياء المضارع لغير جازم فى : يوم يأت لا تكلم نفس - على لغة هذيل

ومنها إفادة المعانى المختلفة بالقطع والوصل فى بعض الكلمات نحو: أم من يكون عليهم وكيلا ، وأمن يمشى سوياً . فان قطع أم عن من يفيد معنى بل دون وصلها بها

ومنها: أخذ القراءات المختلفة من اللفظ المرسوم برسم واحد نحو: وما يخدعون إلا أنفسهم ، وتمت كلمت ربك صدقاً وعدلا ، فلو كتبت الأولى وما يخادعون لفاتت قراءة يخدعون ولو كتبت الثانية بألف على قراءة الجمع لفاتت قراءة الأفراد ورسمت التاء مجرورة لافادة ما ذكر .

ومنها: عدم الاهتداء إلى تلاوته على حقه إلا بوقف شأن كل علم نفيس يتحفظ عليه

ومنها : عدم تجهيل الناس بأوليتهم وكيفية ابتداء كتابتهم . **على محمد الضباع**

تفسير القرآن الكريم

« وَإِنَّ لَكُمْ فِى الأَنْعَامِ لَعِبْرَةً ، نُسْقِيكُمْ مِمَّا فِى بُطُونِهِ مِنْ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَبَناً خَالِصاً سَائِغاً لِلشَّارِبِينَ » .

الشرح

عجيب خلق الله ونظامه فى كائناته ، فاذا قلبت الطرف فى هذا الكون الفسيح ، وآتاك الله نعمة التدبر ، رأيت فى كل شىء آيات ناطقات بأفصح بيان عن واسع علم الله تعالى وعظيم قدرته ، وسامى حكمته .

انظر إلى الأنعام كيف يستخرج الله تعالى منها الألبان ، ويجعلها غذاء خالصاً سائغاً للشاربين ، ألا ترى أنها تعتلف بالحشائش جافة ورطبة ، وبالحب والنباتات المختلفة فى طعومها وألوانها ، حتى إذا استقرت فى كرشها أفرز عليها عصارته الهاضمة ، وتستمر هذه العصارة تعمل فى الطعام تحليلا وتركيباً حتى يهضم الهضم الأولى ، ويستحيل بعض أجزائه إلى عصارة قابلة للامتصاص ، فتمتصها أوعية منبثة على جدران الكرش ، وتتجمع تلك الأوعية حتى تصير وعاء واحداً يسمى فى بنى الانسان « وريد الباب » ويصب هذا الوعاء فى الكبد فتقوم هى بدور آخر هو تحويل تلك العصارة إلى دم ، ثم توصله ـ بعد أن تأخذ منه الصفراء وتخزنها فى المرارة ـ إلى القلب الذى يقوم بتوزيع ذلك الدم على أجزاء الجسم المختلفة ، وتقوم الكليتان بافراز المواد البولية منه ، والطحال بافراز السوداء كذلك .

والمواد التى لم تقبل الاستحالة إلى عصارة لكثافتها ينفتح لها صمام الأمعاء فتنحدر فيها فرثاً بطريقة يحتاج بيانها إلى شرح طويل يزيدك علمه إكباراً لله سبحانه وتعالى ، وإعظاما لترتيبه وتقديره العجيب ، ثم يخرج ذلك الفرث من فتحة الشرج سرجيناً ينتفع به فى الوقود وتقوية الأرض وإقدارها على الانبات .

واعلم أن عروقا مشحونة بالدم تغذى فى الضرع لحما غددياً رخواً أبيض معداً بطريقة تجعله صالحا لأن يقوم بعملية تحويل الدم إلى لبن ، وذلك فى زمن خاص ، وهو الزمن الذى يلى عملية الوضع ، أما قبل الوضع بمدة فان الضرع تكون أجهزته المحولة للدم إلى لبن معطلة عن العمل لحكمة تغذية الجنين وإعطائه حقه من دم أمه.

ولقد اختص الله تعالى الأنثى بالرطوبة لتكون مادة للتولد ، وسبباً لقبول التمدد، فتتسع للولد، كما اختصها بجعل ضرعها صالحا لذلك دون الذكر لقيام الأنثى بعمليتى الحمل والارضاع دون الذكر .

ومن تدبر فى بدائع صنعه تعالى فيما ذكر من الأخلاط والألبان ، وإعداد مقارها ومجاريها ، والأسباب المولدة لها ، وتسخير القوى المتصرفة فيها كل وقت على ما يليق به ، اضطر إلى الاعتراف بكمال علمه سبحانه وقدرته وحكمته وبالغ رأفته ورحمته .

حكم حارت البرية فيها ... وحقيق بأنها تحتار

فانظر يا أخى حرسك الله ، وسلك بك طريق العظة والاعتبار ، كيف تولد هذا اللبن الأبيض اللذيذ الطعم المغذى عن دم أحمر تعافه النفس وتتقذره ، ذلك الدم الذى تولد من خلاصة من طعام ، انفصلت تلك الخلاصة عن سرجين قذر كريه الرائحة مرذولها ، ولم يتأثر اللبن لا بلون الدم ولا برائحة الفرث ، فهو قد خرج من بين فرث أولا ، ودم ثانيا ، خالصاً من لون الدم ورائحة الفرث ،

سائغاً للشاربين سهل المرور فى حلوقهم لدهنيته ، أليس فى ذلك عبرة للمعتبرين ، وذكرى للذاكرين .

هذا يأخى أصفى مايقال فىالآية من المعانى وأميله إلى الواقع، فافهمه واحرص عليه ، ودع ما خالفه مما لا يتفق والواقع .

وقد احتج بعض من يرى أن المنى طاهر وإن جرى فى مسلك البول على من يرى أنه نجس لذلك ، بأنه ليس بمستنكر أن يسلك مسلك البول ويكون مع هذا طاهراً كما خرج اللبن من بين فرث ودم ولم يسلب الطاهرية .

ولقد قال الامام الفخر الرازى فى تفسيره الكبير «قال أهل التحقيق: اعتبار حدوث اللبن كما يدل على وجود الصانع المختار يدل على إمكان الحشر والنشر ، وذلك لأن العشب الذى يأكله الحيوان إنما يتولد من الماء والأرض ، فخالق العالم دبر تدبيراً انقلب به لبناً ، ثم دبر تدبيراً آخر حدث به من اللبن الدهن والجبن ، وهذا يدل على أنه تعالى قادر على أن يقلب أجزاء أبدان الأموات إلى صفة الحياة والعقل كما كانت قبل ذلك ، فهذا الاعتبار يدل من هذا الوجه على أن البعث والقيامة أمر ممكن غير ممتنع .

ولا يفوتنك أيها النحوى أن تذكير الضمير فى قوله تعالى : « بطونه » العائد إلى الأنعام باعتبار أن الأنعام اسم جمع ، واسم الجمع يذكر ضميره ويفرد باعتبار لفظه كما هنا ، ويؤنث ويجمع باعتبار المعنى كما فى مواضع أخرى ، فلا تغفل ، والله أعلم .

مصطفى محمد الطير

المدرس بالأزهر الشريف

القسم فى القرآن

فى شبه الجزيرة العربيـة عاش العرب قبائل تدين بالوثنية وتؤمن بالحرية وتبنى نظامها الاجتماعى على أساس العصبية القبلية .

وشبه الجزيرة بقاع ممتدة لايكاد يكتنفها حد طبعى من جبل عال أو نهر فاصل . وتربتها نبت فيها الفقر وانتشر ، فلا تـكاد تعثر على موضع الـكلأ أو المـاء إلا بعد لأى ، فتدفعهم غريزة حب البقاء وكل هذه الظروف المحيطة إلى الاغارة على مواضع الخير .

هذه القبائل التى لا تخضع لحـكومة واحدة ولا تقر بنظام جامع لم تهدأ ثائرتها إلا على الغلبة ، وعلى هذا النهج كانت فوضى العرب فى دنيا الجزيرة .

إنما للقبـائل رؤساء والرؤساء عادة أحكمهم وأثبتهم جنانا وأرجحهم عقلا وأميزهم صفات. ولعل هذه الرءوس المسئولة قد هداها تفـكيرها إلى تأمين الأرواح والأنفس بعض الشىء فاهتدت إلى الضمان الاجتماعى بعد أن لاقت مر الخسارة. وهـذا الضمان لا يكون بقانون ولا ينبنى على نظام إنما يتفق ومنطق الحوادث والظروف والزمن . فالعربى يعرف الـكرامة ويقدسها ويحترم وعده ويبر به، وقوله حجة على نفسه . إذن لا نجد حادا لخروجه إلا العهد والميثاق . وإذا قدم عهده وميثاقه أشهد عليه وأكده حتى يضمن الطرف الآخر صدق العهد وتأكيده بما هو عزيز لديه وشريف عنده وكريم على نفسه، بل ومقدس أمام عقيدته وفى أمكنة شريفة مقدسـة كالأصنام والهياكل ، وعلى رأسها الـكعبة قبلة الحجيج وأمام أشرف الناس وسادتهم .

كانت هذه أسس القسامة عند العرب وهى أن يجتمع خمسون شخصاً من القبيلة ويقسمون على أن تكون سلامة القبيلة فى أعناقهم وقسمهم عند الكعبة المقدسة .

وهذا العهد والاشهاد ذكره صاحب الامعان وبين أن العبرانيين ربما غمسوا أيديهم فى إناء ماء إذا كانوا كثيراً فكأنهم أخذ بعضهم بيد بعض، وربما أخذوا عطراً فاقتسموه بينهم ومسحوا به أيديهم. وحلف المطيبين الذى شهده النبى صلى الله عليه وسلم وأبو بكر فى الجاهلية من هذا الجنس .

هذه هى الصورة العامة فى القسم عند العرب كما ظهرت لنا . أما الصورة الخاصة فهى التى تتعلق بالفرد الذى يريد أن يؤكد للسامع كلامه فيقسم ليقطع على نفسه أمراً يقوم عليه أو يمتنع عنه . أما ما أقسم به فهو كل مقدس أو شريف عنده أو يتعلق عليه شرفه ونحيا عليه كرامته فهو أقسم فى مكة باللات والعزى آلهته .

وأقسم زهير بالكعبة فقال :

أقسمت بالبيت الذى طاف حوله ... رجال بنوه من قريش وجرهم

يمينا لنعم السيدان وجدتما ... على كل حال من سحيل ومبرم

وأقسم بها النابغة فقال :

فلا لعمر الذى قد زرته حججا ... وما هريق على الأنصاب من جسد

وقال كعب بن زهير :

وما ساءت ظنونك يوم نولى ... بأرماح وفى لك مشرعوها

وفى هذا دليل على أن العربى أقسم بالرمح وهو مايتعلق عليه شرفه وكرامته .

وأقسم مهلهل بالأنصاب فقال :

كلا وأنصاب لنا عادية ... ومعبودة قد قطعت تقطيعاً

وأقسم النابغة بعمره فقال :

لعمرى وما عمرى على بهين ... لقد نطقت بطلا على الأقارع

كما أقسم العربى بآبائه وأجداده . فالقسم إذن عرفه العربى وظهر فى حياتهم الاجتماعية بصورة واضحة .

ويذكر صاحب الامعان أن الأيمان الدينية أصلها الاشهاد ، وإنما اختلط بها معنى التعظيم من جهة المقسم به لا من جهة محض الاشهاد الذى هو أظهر معنى .

حتى إذا كان الحادث الجلل بين هؤلاء القوم والانقلاب ذو الخطر : دين الاسلام ودستوره القرآن الكريم، وفيه نظم جديدة وتقاليد حديثة وأوضاع بينها وبين ما كانوا عليه بون شاسع يحرم عليهم ما أحلوه لنفسهم وينكر عليهم ما أقروه من جهل وكفر فهم لا يؤمنون إلا بما ورثوا عن آبائهم وهم قوم خصمون كما وصفهم الكتاب الكريم ، والدين جديد فى العقيدة والحياة الاجتماعية والعرف والعادات ، وصعب على النفس تحويل العقيدة وشاق عسير جداً تغير نظام الحياة التى ألفوها زمناً طويلا،والدين فى أوله والقرآن فى بدء نزوله ـ فى مكة المكرمة ـ والصراع النفسى قائم على أشده، وكانت مشكلة روحية خطيرة. دين ينشر بالقول والأسلوب القوى ، والعرب أمة القول وأساطين البلاغة .

والقرآن الكريم أنزل بلغة العرب وخاطبهم من جنس ما كانوا ينطقون به ، فجاء مثلا أعلى فى البلاغة والاعجاز . والقسم فى حقيقة استعماله توكيد للقول ، وإذا تصدر الكلام نبه السامع إلى أهميته بإيجازه. والعربى ذكى نابه يكتفى من الكلام بأقله ،وسحر البلاغة عنده الاعجاز ، ولأنه اعتاد أن يكون القسم فاتحة قول فصل إذ كان يحترز عن الأيمان الكاذبة ويخشى مغبتها لاعتقاد منه أن الحنث فيها شؤم على صاحب الأيمان تخرب الديار وتدعها بلاقع لما فيها من الغدر والخيانة ، ومن أجل هذا كانت اليمين عندهم قاطعة فى إثبات الحقوق . قال زهير :

فان الحق مقطعه ثلاث   يمين أو نفار أو جلاء

لهذا يفرغ السامع نفسه للقسم .

وكانت تلك هى الحال فى نزول الآيات التى ورد فيها القسم ، وعند من تتلى عليه منكرين كانوا أم مؤمنين ، ولم يكن التوكيد بالقسم إذاً لانكار السامع فحسب بل كان أيضاً لتقوية الحكم المقسم عليه فى ذاته ، وإحاطته بالأهمية، والدعوة إلى الانتباه والاصغاء .

وإذا عرفنا عناد العربى وإنكاره ، وخصومته ، وجهله فى جادة الدين ، آمنا بأن الحجة مهما كانت دامغة ، لم يكن سهلا أن تلين رأسه ، أو تحول فكره ، ليفزع من الجاهلية إلى الاسلام ، ويبرأ من الكفر إلى الايمان ، فهو متكبر ، به صلف ، جاهل متعصب ، لا يقبل عقله حجة ولا قضية ، حتى يسلم بهذا المنطق السليم ، والقضايا المنظمة ، فكان الأسلوب القوى ، وكانت السورة القصيرة حتى تبقى فى نفسه وحدة تصطرع من أثر القول، وكان المعنى والتهديد ، وكان الوعد والوعيد ، وكان القسم مؤكداً لهذا وذاك . ونرى صفات هذا الأسلوب واضحة فى القرآن ، والمكى منه بنوع خاص حين كان الدين فى النشوء ، حتى إذا تلونا المدنى الذى نزل حين خف هذا الصراع نجد أن القرآن اعتمد على الدليل .

وبهذا الأسلوب المكى غزا القرآن قلب العربى كما استولى على رأسه لأنه خاطب عواطفه ، كما رماه بالحجة التى صدع لها ، وقد يقتضى الحال أن يستعمل السلاحين : سلاح النفس وسلاح العقل ، كما أقسم سبحانه فقال: «والطور وكتاب مسطور ، فى رق منشور ، والبيت المعمور » . ثم جادله وحاجه ، فقال سبحانه : «فذكر فما أنت بنعمة ربك بكاهن ولا مجنون ، أم يقولون شاعر نتربص به ريب المنون ، قل تربصوا فانى معكم من المتربصين » . ثم قال سبحانه : « فليأتوا بحديث مثله إن كانوا صادقين، أم خلقوا من غير شىء أم هم الخالقون ، أم خلقوا السموات والأرض بل لا يوقنون ، أم عندهم خزائن ربك أم هم المصيطرون » .

والاستدلال الذى أورد له صاحب الامعان ثمانية أوجه ، لم يكن على قوانين

ثابتة كما هو الشأن فى علوم الفيزياء والرياضة ، إنما كان على ناحية نفسية خالصة ، هى العقيدة ، والعقيدة محتاجة إلى التلقين ، والتلقين مفتقر إلى التوكيد، والتوكيد فى حاجة إلى القسم . كذلك الاقناع يستلزم أسلوباً خاصاً يلقيه الخطباء من فوق المنابر يخاطبون به العقول ، ويهزون المشاعر ، ولابد من أن ينفذ القول إلى نفسية السامع ، كما يصدمه البرهان و تظهر له الحجة ؛ كل هذا يمهد له التوكيد ، والقسم من عوامل التوكيد — هذا هو النظر فى حكمة القسم .

وأقسم الله سبحانه على أنه واحد كما جاء فى قوله: «والصافات صفاً،فالزاجرات زجراً ، فالتاليات ذكراً ، إن إلهكم لواحد » . وعلى أن الرسول حق كما فى قوله جل شأنه : « يس والقرآن الحكيم ، إنك لمن المرسلين» . وعلى أن القرآن حق كما قال سبحانه : « فلا أقسم بمواقع النجوم ، وإنه لقسم لو تعلمون عظيم ، إنه لقرآن كريم » . وعلى الجزاء كما فى قوله : « والطور وكتاب مسطور ، فى رق منشور ، والبيت المعمور ، والسقف المرفوع ، والبحر المسجور ، إن عذاب ربك لواقع، ماله من دافع » .وعلي حال الانسان كقوله : « والليل إذا يغشى ، والنهار إذا تجلى ، وما خلق الذكر والأنثى ، إن سعيكم لشتى » . وكان القسم فى القرآن إذن مؤكداً للدعوة « الوحدانية والرسالة والبعث » .

وأقسم الله سبحانه فى سبعة مواضع ذكرها السيوطى فى الاتقان،وأقسم بنبيه فى قوله « لعمرك إنهم لفى سكرتهم يعمهون » وذكر صاحب تفسير الجواهر أن الله سبحانه أقسم عشرين قسما بينها، وأن هناك نحو عشرين قسما بما تحت الفلك. وذكر البيضاوى قسمه بالحروف إذ قال «ص والقرآن ذى الذكر بل الذين كفروا فى عزة وشقاق»، « يس والقرآن الحكيم إنك لمن المرسلين»، «ق والقرآن المجيد بل عجبوا أن جاءهم منذر منهم فقال الكافرون هذا شيء عجيب» وقال«ن والقلم ومايسطرون» .

وهو إلى جانب هذا أقسم بالقرآن وأقسم بالملائكة فقال « والصافات صفاً

فالزاجرات زجراً » وباليوم الآخر « والمرسلات عرفا ، فالعاصفات عصفاً ، والناشرات نشراً ، فالفارقات فرقا ، فالملقيات ذكراً » .

أما هذه الأقسام فقد أثارت خلافات وخلقت مجالا للنظر والقول، فالحق سبحانه عظيم خالق قديم موجود بذاته موجد بمجرد الارادة إذا أراد لشيء أن يقول له كن فيكون، دائم باق ليس كمثله شيء أوجد الخلق فى أكوانه حتى إذا شاء فنى هذا الخلق ويبقى الملك لله الواحد القهار. وكل ماسواه حادث متغير مفتقر إليه فى وجوده. فكيف يقسم الله بمخلوقاته ؟ بل كيف يقسم والقسم فى ذاته غير محمود فى الشرع؟ وكذلك نهى المسيح حواريه عنه فقال « ليكن قولكم نعم نعم، أولا لا، ولا تحلفوا ». كما أن القرآن وقع على أصول الايمان فان كان المقصود إثبات المحلوف عليه فى ذهن المؤمن فالمؤمن مصدق لايحتاج إلى يمين وإلا كان المقصود به تحقيقه وإثباته فى ذهن الكافر والكافر لا يصدق باليمين . قال ابن القيم فى التبيان : إن الله سبحانه يقسم بأمور على أمور ، وإنما يقسم بنفسه الموصوفة بصفاته وآياته المستلزمة لذاته وصفاته ، وإقسامه ببعض المخلوقات دليل على أنه من عظيم آياته . وقوله هذا فيه قصور. قال السيوطى فى الاتقان إنه أجيب بأن القرآن نزل بلغة العرب ومن عادتها القسم إذا أرادت أن تؤكد أمراً. وأن أبا القاسم القشيرى أجاب بأن الله ذكر القسم لكمال الحجة وتأكيدها، وذلك أن الحكم يفصل باثنين: إما بالشهادة وإما بالقسم، فذكر تعالى فى كتابه النوعين حتى لاتبقى له حجة. والقرآن إذا أقسم بالشمس والقمر والنجوم فيشرفها بقسمه، فقد بلغت هذه عند العرب من الشرف غايته حتى عبدها بعضهم ، وفى تشريفه إياها بالقسم بها إغراء له بالتمادى فى عبادتها وهو يقول : «لاتسجدوا للشمس ولا للقمر» وأبعد من هذا أن يشرف بالقسم ما نبصره ومالا نبصره فاذا قلنا إنه فيما نبصره مخلوقات لا يصح ذكرها لتشريفها كالخنزير مثلا فانه مما لانبصره وإبليس، إذ قال سبحانه «فلا أقسم بما تبصرون وما لا تبصرون» فالخنزير

مما نبصره وإبليس مما لا نبصره، فهل يقسم الله بالخنزير لتشريفه وقد حرم على المسلمين لحمه ودمه دون سائر الحيوان؟ وهل يقسم الله بإبليس وقد طرده وقال له « اخرج منها مذؤوما مدحورا » وقال أيضاً «فاخرج منها فإنك رجيم وإن عليك لعنتي إلى يوم الدين » ثم رأى ذكره بدرسن فى مقاله بدائرة المعارف البريطانية قال إن القسم الذى جاء فى قوله سبحانه « فلا أقسم بمواقع النجوم» وفى قوله « فلا أقسم بالخنس الجوار الكنس » مما كان يقسم به كهان الجاهلية من المظاهر الطبيعية. وقد ذكر السيوطى فى الاتقان أن القسم بالمخلوقات أجيب عنه بأوجه؛ أحدها: أنه على حذف المضاف أى ورب التين ورب الشمس. وعندى أن هذا تأويل فيه ضعف وهرب من التعليل. والثانى: أن العرب كانت تعظم هذه الأشياء وتقسم بها فنزل القرآن على مايعرفونه. والثالث: أنها تدل على بارئها وصانعها، وفى الأخيرين وجاهة.

والواقع أن القسم بهذه المخلوقات التى أثارت الشبهات إنما كان لحكمة أرادها الله فى كتابه العزيز، وظاهر هذه الحكمة أن الحق سبحانه أنزل القرآن أول ما أنزل فى مكة والعرب منكرون للدين، فأراد أن يؤلف قلوبهم وينبه آذانهم لسماع القرآن وتذوق معانيه، ولم يشأ بحكمته أن ينفرهم من هذا القول الجديد، فاذا أضفنا إلى الأسلوب المكى بما فيه من قوة ورصانة وقصر فى الآية والسورة وموسيقى فى اللفظ؛ هذا القسم وقد وضحنا قيمة القسم عند العربى، ونزيد هنا أن يكون القسم بما كان يعبده ويعظمه ولا بأس فى هذا القول، فالقرآن إذا أقسم بالشمس أو بالقمر أو بمواقع النجوم، فان العربى فى هذه الفترة لم يزل من قلبه تعلقه بهذه المعبودات القديمة، فذكر معبود له يسرى فى جسمه الرعدة ويرهف سمعه إلى ماوراء ذلك ثم يتدرج أسلوب الآية فيثبت له أن هذه الشمس أو هذا القمر ليس الا آية من آيات الله وأنه مخلوق وأن هناك خالقا وأن كل هذه الكواكب تسبح فى فلك وأن الشمس تجرى

لمستقرلها وأن ذلك تقدير العزيز العليم وأن القمر قدره منازل حتى عاد كالعرجون القديم. ولاتزال الآية تتلو الآيةبالحجة والبرهان والموسيقىوسحر البيان وقد تنوع الأساوب حتى لايمل السامع فينتقل من خبر إلى استفهام إلى تعجب إلى غير ذلك ، كما جاء فى قوله تعالى. « كلا إن الانسان ليطغى أن رآه استغنى إن إلى ربك الرجعى أرأيت الذى ينهى عبداً إذا صلى أرأيت إن كان على الهدى أو أمر بالتقوى أرأيت إن كذب وتولى ألم يعلم بأن الله يرى. كلا لئن لم ينته لنسفعن بالناصية ناصية كاذبة خاطئة ، فليدع ناديه سندع الزبانية ، كلا لا تطعه واسجد واقترب » فهذا إخبار واستفهام،و تعجب، وقسم،وأمر،ونهى، وما تزال مثل هذه الآيات تتلى حتى تشرك السامع فى استنباط الدليل على صحة الدعوى وفى استنباط المنكر لتدليل حجة قوية عليه، وكسب كبير يراه لنفسه وينتفع منه، فهو إذن ألفة على السماع لآياته،ثم عرفه ماجاء به ثم عنفه إن هو أصر على انكاره وأوعده شر الجزاء وكرر له وأكد فأقسم.

ولم يرد القسم فى السورة الاعلى انسجام الفكرة وأجزاء القول ورابطة بين القسم والمقسم عليه ، فللقسم صلة قوية بما أقسم عليه الله، ونحن إذا عرفنا أن من أسباب نزول سورة الضحى ماقاله جندب بن سفيان البجلى من أن رسول الله صلى الله عليه وسلم اشتكى من احتباس الوحى عليه فلم يقم ليلتين أو ثلاث، وأن أم جميل امرأة أبى لهب جاءته فقالت : يا محمد إنى لأرجو أن يكون شيطانك قد تركك لم أره قربك ليلتين أو ثلاث ، أو أن اليهود سألته صلى الله عليه وسلم عن الروح ، وعن ذى القرنين وأصحاب الكهف فقال سأخبركم غداً ، ولم يقل إن شاء الله فاحتبس الوحى عليه . أو ماقاله زيد بن أسلم من الحديث الذى دار بين رسول الله صلى الله عليه وسلم وجبريل عليه السلام ، إذ أن سبب تأخر جبريل كان جروا فى بيت النبى عليه الصلاة والسلام وأن المشركين قالوا : ودع محمدا ربه . ومن اختلافهم

فى مدة الاحتباس من اثنى عشر يوما، أو خمسة عشر ، أو أربعين، فانه يعنينا أن الوحى احتبس على رسول الله فنزل قوله « والضحى والليل إذا سجي ما ودعك ربك وما قلى » . والقول فى تفسير سورة الضحى أن المراد به وقت ارتفاع الشمس الذى يلى وقت بروزها للناظرين دون ضوئها وارتفاعها لأنه أنسب لما بعد، وتخصيصه بالأقسام به لأنه شباب النهار. وقوله فيه قوة غير قريبة من ضدها ولذا عد شرفا يوميا للشمس وسعداً ، ولأنه على ماقالوا الساعة التى كلم الله تعالى فيها موسى عليه السلام، وألقى فيه السحرة سجداً لقوله تعالى « وأن يحشر الناس ضحى» ففيه مناسبة للمقسم عليه، وهو أنه تعالى لم يترك النبى صلى الله عليه وسلم ولم يفارقه ، وقيل المراد النهار كما فى قوله « أن يأتيهم بأسنا ضحى » كذلك نجد المناسبة بين القسم والمقسم عليه فى كل ماورد من السور التى ذكر فيها القسم

أما القول فى « لا » الداخلة على القسم كما فى قوله تعالى : « فلا أقسم بمواقع النجوم» فقد اختلفوا فى معناها، فقيل إنها نافية ؛ ونفيها لقول سابق ، على أن يكون القسم استئناف قول . ورأى الزمخشرى أنها تنفى القسم على أن يكون إخباراً لا إنشاء، والمعنى فى ذلك أن لا يقسم بالشىء إلا إعظاما له. وقيل إنها زائدة وإنها زيدت لمجرد التوكيد .

عبد العزيز الدالى

وكيل قسم المراجع

بمكتبة جامعة فؤاد الأول

جمع القرآن
فى عهد أبى بكر الصديق رضى الله عنه
— ٥ —

المراد بهذا الجمع

يراد بجمع القرآن فى هذا العهد كتابته جميعه فى صحف مجتمعة فى موضع واحد على الأحرف السبعة التى نزل بها ، مرتب الآيات فى سورها على ما وقف النبى صلى الله عليه وسلم أصحابه عليه بارشادهم عند نزول كل آية أو آيات إلى موضعها من سورتها ، وبقراءة سور كاملة فى الصلاة وغيرها ، وإقراء الصحابة والاستماع منهم .

هذا كله متفق عليه بين العلماء ، وأما كونه مرتب السور على ما هى عليه الآن فى المصحف العثمانى أو غير مرتبها ، فهو مبنى على أن الترتيب الذى فى المصحف العثمانى توقيفى أو اجتهادى ، وهو محل اختلاف بين العلماء .

السبب فى هذا الجمع ووقته

لما اختار الله عز وجل رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى جواره فى شهر ربيع الأول سنة إحدى عشرة للهجرة ، وبويع أبو بكر الصديق رضى الله عنه بالخلافة ، صادفته فى أول عهده صعاب شديدة أثارت مخاوف المسلمين جميعاً ، فان الوحدة الاسلامية التى تمت فى عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم كادت تضطرب حين وفاته ، وذلك أنه ارتد قوم عن دين الله ، ومنع قوم الزكاة ، فرأى أبو بكر

رضى الله عنه أن لا بد من القضاء على هذه الثورة الطاغية فى مهدها بقتال هؤلاء وأولئك ، حتى يذعنوا للطاعة .

ومن أعظم المواقع التى اشتبك فيها المؤمنون والمرتدون موقعة اليمامة فى أواخر سنة إحدى عشرة للهجرة .

وذلك أن مسيلمة بن حبيب الكذاب كان قد تنبأ باليمامة قبل وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم استفحل أمره بعد وفاته ، والتف حوله بنو حنيفة ، يؤمنون بأنه نبي ورسول إليهم ، كما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم نبى ورسول إلى قريش ، فأرسل أبو بكر رضى الله عنه لقتالهم خالد بن الوليد فى جيش عظيم كان فيه جماعة من القراء حفاظ كتاب الله ، كما كان فيه جماعة ممن شهدوا بدراً ، وكان جند مسيلمة نحواً من أربعين ألفاً[1] ولا حاجة بنا إلى تفصيل هذه الواقعة التى لم تسبقها واقعة تماثلها أو تقاربها فى عدد المقاتلين وعدد القتلى من الفريقين منذ ابتدأت الوقائع الاسلامية ، ويكفى أن نذكر من نتائجها أنه قتل مسيلمة الكذاب، وقتل من قومه بنى حنيفة إحدى وعشرون ألفاً ، ورجع الباقون منهم إلى الاسلام ، واستشهد من المهاجرين والأنصار من أهل قصبة المدينة ثلاثمائة وستون. ومن المهاجرين من غير أهل المدينة ثلاثمائة، وقيل بلغ قتلى المسلمين ألفاً ومائتين. وقال ابن كثير فى كتاب فضائل القرآن: قتل من القراء يومئذ قريب من خمسمائة ، وقال القرطبى فى مقدمة كتابه « الجامع لأحكام القرآن » كان القتلى من القراء فى هذه الغزوة سبعين .

---

(١) انظر تاريخى ابن الأثير والطبرى .

كذا فى ابن الأثير . وقال ابن كثير فى فضائل القرآن ص ٢٤ : إن مسيلمة التف معه من المرتدين قريب من مائة ألف ، فجهز الصديق لقتاله خالد بن الوليد فى قريب من ثلاثة عشر ألفاً اھ .

وقال النووى فى شرح مسلم فى باب فضائل أبى بن كعب ، ثبت فى الصحيح أنه قتل يوم اليمامة سبعون ممن جمع القرآن .

أقول إن كلمة القراء تطلق على من كان مجموعهم يحفظ القرآن ، وإن كان بعضهم يحفظ كثيراً منه لا كله ، ولعل هذا ملحظ من جعلهم خمسمائة ، وأما من جعلهم سبعين فلعل ملحظه إطلاق الاسم على من يحفظون منهم كل القرآن فليتأمل.

هذا وقد ذكر ابن الأثير فى التاريخ فى أثناء التحدث عن هذه الغزوة أسماء خمسة من كبار الصحابة الذين قتلوا فيها ، ثم ذكر فى نهاية الكلام عليها أسماء تسعة وثلاثين صحابيا ممن قتل فيها .

ولعل هذا هو السر فى قول الدكتور هيكل فى كتابه الصديق أبو بكر : كان بين القتلى من المهاجرين والأنصار تسعة وثلاثون من كبار الصحابة ومن حفاظ القرآن اه. وفى كلامه إغفال للخمسة المذكورين فى أثناء القصة ، وادعاء أن التسعة والثلاثين كانوا من حفاظ القرآن ، وهو رجم بالغيب ؛ فمن الجائز أن يكون بين القتلى حفاظ لم تذكر أسماؤهم ، وبين من ذكرت أسماؤهم من ليس من الحفاظ .

وإنما نبهت على هذا لئلا يتوهم قارىء كتابه أن ذكره هذا العدد مبنى على تحقيق علمى يقصد به الرد على من قال إن القتلى من القراء كانوا سبعين أو أكثر.

وأيا ما كان عددهم فقد كان مقتلهم سبب جمع القرآن فى خلافة أبى بكر رضى الله عنه كما تخبرنا به الروايات الصحيحة الآتية :

لماذا كانت غزوة اليمامة سببا فى جمع القرآن؟

لم تكن غزوة اليمامة إلا واحدة من الغزوات التى قضى الله ، ولا راد لقضائه ، أن يبتلى بها المسلمين بعد وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم ، وقد استشهد فيها من حفاظ القرآن من استشهد ، فماذا عساه يكون إذا تهافت المسلمون على الغزوات الواحدة تلو الأخرى

كما يتهافت الفراش على النار فيستشهد فى كل غزوة عدد من الحفاظ فيذهب كثير من أحرف القرآن السبعة المحفوظة فى الصدور بذهاب حملته، أو يذهب كثير من صحائف القرآن المكتوبة بين يدى الرسول صلى الله عليه وسلم بذهاب أصحابها ، فلا يدرى طريق كتابته الذى أقره النبى صلى الله عليه وسلم... هذا الوجه ـ وهو خشية ذهاب بعض القراء ـ هو ما صرحت به رواية زيد بن ثابت رضى الله عنه وستأتى .

وقد أشار الدكتور هيكل فى كتابه «الصديق أبو بكر» إلى وجه آخر يجعل مقتل القراء سببا فى الجمع فقال ما خلاصته « إن الذين تلقوا القرآن عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فكتبوه أو وعته صدورهم ، كان تقديسهم لكتاب الله تعالى وإيمانهم به يحولان دون الزيادة فى القرآن أو النقص أو تحريفه ، فلم يزد اختلافهم بعضهم مع بعض عما أقرأهم به النبى صلى الله عليه وسلم من الأحرف السبعة، لكن هؤلاء القراء رجال كتب عليهم الموت كما كتب على الذين من قبلهم ، ولقد استحر القتل فى طائفة منهم فى حياة النبى صلى الله عليه وسلم ببئر معونة ثم استحر القتل فيهم فى اليمامة فاذا ذهب أكثرهم أو ذهبوا جميعا لم يكن عجبا أن يقوم من يزيد فى القرآن أو ينقص منه ومن يحرف كلام الله عن مواضعه، ثم لا عجب أنه يختلف الناس على هذا، وأن ينتهى اختلافهم إلى الثورة، يصلى المسلمون نارها، ويصيب الاسلام منها ضرر كبير اهـ.

أقول إنه فى هذا الكلام لم يجعل السبب خشية ذهاب بعض القراء بل جعله خشية التبديل والتغيير والزيادة والحذف ثم الاختلاف ثم الثورة، وعندى أن هذا الذى ذكره لا ينفى ما فى الحديث ، فالواقع أن ذهاب القراء يخشى منه كل ذلك، لكن يحتمل أن عمر لم يخطر بباله يومئذ إلا خشية الذهاب ، ويحتمل أنه خطر بباله كل ذلك واقتصر عند الاشارة بالجمع على خشية الذهاب ، وأفضى فى المراجعة التى لم تفصلها الأحاديث بالباقى، فما ذكره الدكتور إنما هو احتمال عقلى، ففى جزمه بمؤاخذة

لأيهامه أنه منقول عن عمر ، وفى تركه ماصرحت به الرواية الصحيحة مؤاخذة أخرى لأيهامه أنه لم ينقل أو نقل ولم يرق فى نظره .

شعور عمر رضى الله عنه بوجوب الجمع لهذا السبب

فكر عمر بن الخطاب رضى الله عنه فى قتل القراء ، فرأى بثاقب نظره أن على المسلمين واجبا من أهم الواجبات لو أجالوا فيه أفكارهم لسارعوا إليه وتنافسوا فيه ، ألا وهو جمع القرآن بكتابته مجتمعا فى موضع واحد على ماتقدم .

فالجمع بهذا المعنى وإن لم يحصل فى زمن الرسول صلى الله عليه وسلم لعدم الحاجة إليه ولعدم إمكان انتظامه فقد نبه أمته اليه حيث كان يأمر بكتابة كل مانزل من القرآن على ماتيسر وقتئذ من العسب واللخاف والأكتاف والرقاع وغيرها . وكان ينهى عن كتابة غير القرآن وينهى عن السفر بالقرآن إلى أرض العدو ، وكل هذا منه صلى الله عليه وسلم إيماء إلى أن تحافظ الأمة على القرآن بما تستطيع المحافظة عليه به . ومما يومىء إلى ذلك تسمية الله عز وجل إياه كتابا فى آيات كثيرة كقوله جل شأنه : « ذلك الكتاب لاريب فيه هدى للمتقين » والكتاب ما كتب منسقا فى موضع واحد .

فالجمع الذى رآه عمر إذاً لم يكن من المحدثات المردودة ، والبدع الضالة ، وإنما كان من المصالح الواجبة التى تأثم الأمة جميعها لولم تقم بها بعد توجيه أنظارها إليها .

عرض عمر ماراه على أبى بكر رضى الله عنه

لما اقتنع عمر رضى الله عنه بهذا الرأى صمم على أن يواجه به أبا بكر رضى الله عنه وهو الذى حمى العقيدة الاسلامية بمنازلة أهل الردة ومانعى الزكاة ، ليحمى أس هذه العقيدة وكتابها الذى هو حجة الله على خلقه فيحفظه من الذهاب ، فقال له : إن

القتل قد استحر بقراء القرآن يوم اليمامة وإنى أخشى أن يستحر القتل بالقراء فى المواطن كلها فيذهب قرآن كثير وإنى أرى أن تأمر بجمع القرآن.

توقف أبى بكر ثم اقتناعه بعد مراجعة عمر

فاجأ عمر أبا بكر بهذا الرأى ولم يكن قد فكر فيه بعد، فخشى أن يكون هذا من الأحداث فى دين الله تعالى فقال: كيف أفعل شيئا لم يفعله رسول الله صلى الله عليه وسلم، قال أبو بكر هذا بادىء بدء قبل أن يجيل نظره فى هذا الموضوع الخطير، فقال له عمر: «هو والله خير[1]» ولم يزل يراجعه حتى شرح الله صدره له. هذا كل ماتحدثت به الروايات ولم يرد فيها تفصيل مادار بينهما من مراجعة.

فريد العبادى

مدرس بالأزهر

منحة ذى الجلال

فى شرح تحفة الأطفال

تأليف حضرة صاحب الفضيلة خادم القرآن الأستاذ على محمد الضباع شيخ عموم المقارىء المصرية، ويطلب من دار الاتحاد العام لجماعة القراء بميدان محمد على الكبير وثمنه ٢٠ مليما خلاف البريد

«١» يظهر لى أن كلمة خير هنا ليست أفعل تفضيل فإنه قد ظهر أن هذا الجمع كان واجبا فتركه لاخير فيه أصلا فهو خير وتركه شر، وفى بعض شروح البخارى أنه أفعل تفضيل ولعله يريد أنه أفعل تفضيل على غير بابه.

عصمة الانبياء

- ٣ -

ماورد فى سيدنا داود عليه السلام

قال الله تبارك وتعالى « وهل أتاك نبأ الخصم إذ تسوروا المحراب إذ دخلوا على داود ففزع منهم قالوا لاتخف خصمان بغى بعضنا على بعض فاحكم بيننا بالحق ولا تشطط واهدنا إلى سواء الصراط ، إن هذا أخى له تسع وتسعون نعجة ولى نعجة واحدة فقال أكفلنيها وعزنى فى الخطاب، قال لقد ظلمك بسؤال نعجتك إلى نعاجه وإن كثيراً من الخلطاء ليبغى بعضهم على بعض إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وقليل ماهم،وظن داود أنما فتناه فاستغفر ربه وخر راكعا وأناب ، فغفرنا له ذلك ، وإن له عندنا لزلفى وحسن مآب » .

هذه الآيات بجملتها تشير إلى قصة وحادثة تتعلق بسيدنا داود عليه السلام وآخرين، ترتب عليها أن داود طلب المغفرة من الله تعالى فغفر الله له ماصدر منه .

وقد نقل الكاتبون على هذه الآيات روايات كثيرة فى تعيين هذه القصة وفضلا عن ذلك فهذه الروايات تؤدى إلى نسبة أمر لسيدنا داود قام الدليل العقلى على عصمته منه، كما أنها تؤدى إلى التجوز فى لفظ النعجة بدون مقتض . فالواجب غض الطرف عن هذه الروايات حيث كانت تؤدى ماذكر والمصير إلى ما يعطيه ظاهر الآية ويتفق مع ماقضى به العقل .

* ملخص درس للمرحوم الشيخ محمود أبو دقيقة

روى أن داود عليه السلام وزع أعماله على الأيام وخص كل يوم بعمل فجعل يوما للعبادة لا يشتغل بغيرها ، ويوما للقضاء وفصل الخصومات، ويوما للاشتغال بشؤون نفسه ، ويوما لوعظ بنى إسرائيل ، وتخويفهم من الضار وترغيبهم فى النافع.

ففى يوم العبادة بينما كان فى محرابه ، مشتغلا بعبادة ربه منفرداً وحده ، دخل عليه قوم من الأنس متخاصمون مع بعضهم بغير استئذان ، ولم يكن دخولهم من الباب المعتاد ، بل تسلقوا سور محراب المسجد ونزلوا اليه ، والذى دعاهم إلى هذا التسلق أنهم أرادوا الدخول من الباب المعتاد، فمنعهم الحرس الموجود على الباب .

لما رأى داود منهم ذلك فزع وظن أن مجيئهم على ذلك الوجه ، الذىلم يؤلف وفى غير يوم القضاء ، يكون الحامل عليه، فى الغالب ، هو التعدى عليه، فقالوا : لاتخف ، نحن فوجان جار بعضنا على بعض، فاحكم بيننا بالحق، ولاتتجاوزه واهدنا إلى وسط طريق الحق، بزجر الباغى عما سلكه من طريق الجور ، وإرشاده إلى منهاج العدل، ثم تصدى لشرح الحادثة التى جاؤا لأجلها اثنان ، فقال أحدهما يشير إلى الثانى « إن هذا أخى » فى الصداقة أو النسب ، أو الدين « له تسع وتسعون نعجة » هى الانثى من الغنم «ولى نعجة واحدة فقال» صاحب العدد الكثير لمالك النعجة الواحدة «أكفلنيها » تحول لى عنها « وعزنى فى الخطاب » جاء بحجج لم أتمكن من ردها . فقال داود للآخر ما تقول ، فأقر بما قاله المدعى ووافقه ، ولم يحك فى القرآن اعتراف المدعى عليه لأنه معلوم من الشرائع كلها انه لايحكم الحاكم إلا بعد إجابة المدعى . بعد أن سمع داود كلام الخصمين قال للمدعى : لقد ظلمك وتعدى عليك بطلبه ضم نعجتك إلى نعاجه .

هذا هو ما يعطيه ظاهر الآية، ولا مقتضى للعدول عنه، والذنب الذى طلب داود من الله أن يغفره له ، هو ظنه فى بادىء الأمر أن القوم دخلوا عليه

ليقتلوه حيث دخلوا فى غير يوم القضاء وبدون استئذان وتسلقوا سور المحراب ، فلما اتضح له أنهم جاءوا للتحاكم وبرز منهم اثنان لشرح قضيتهم رجع عما كان يظنه أولا من أنهم يريدون قتله ، ورأى أنه ما كان ينبغى أن يتعجل بذلك الظن ، فاستغفر ربه من ذلك الظن الذى تعجل به فغفر له ذلك الظن . ومثل ذلك الظن إن عد ذنباً فى جانب سيدنا داود لعلو منزلته وقربه من الله ، فهو من الصغائر التى لا تخل بعصمة الأنبياء .

هذا هو الذى ينبغى أن يفهم من الآية فلا تلتفت لغيره .

ماورد فى حق سيدنا سليمان عليه السلام

قال الله تبارك وتعالى : « ووهبنا لداود سليمان نعم العبد إنه أواب ، إذ عرض عليه بالعشى الصافنات الجياد ، فقال إنى أحببت حب الخير عن ذكر ربى حتى توارت بالحجاب ، ردوها على فطفق مسحاً بالسوق والأعناق » .

معنى هذه الآية على طريق الاجمال ، أن الله تعالى تفضل على داود فرزقه سليمان المتصف بأنه كثير الرجوع إلى الله تعالى ، والشاهد على أنه كثير الرجوع إلى الله سبحانه ، أنه كان يقتنى صنفاً من الخيل الجياد فاستعرضها من زوال الشمس إلى آخر النهار ليصلح من شأنها ما يحتاج إلى إصلاح حتى تكون معدة للانتفاع بها فى طاعة الله سبحانه وتعالى ، فترتب على ذلك أنه فاتته صلاة العصر فندم على ذلك وقال : « إنى أحببت حب الخير عن ذكر ربى » أى آثرت حب الخير منيباً له عن ذكر ربى ، والمراد من الخير الذى آثره على ذكر ربه وهو الصلاة الاشتغال باعداد الخيل للجهاد .

فالذى وقع منه أنه نسى عبادة ربه لشغله بعبادة أخرى وهذا لا يقدح فى العصمة ولعدم رضاه بذلك طلب إرجاع الخيل إليه ، ولما ردت إليه أخذ يقطع سوقها

وأعناقها بالسيف قرباناًلله تعالى، وكان التقرب بالخيل مشروعاً فى دينه،وقطع سوقها ليتأتى ذبحها .

وقال تبارك وتعالى : « ولقد فتنا سليمان وألقينا على كرسيه جسداً ثم أناب ، قال رب اغفر لى وهب لى ملكا لا ينبغى لأحد من بعدى إنك أنت الوهاب »

ورد عن النبى صلى الله عليه وسلم فى كتاب البخارى تفسير هذه الآية ، وهذا مضمون ما ورد :

قال سليمان لأطوفن اليوم على أربعين امرأة من نسائى تأتى كل واحدة بفارس يجاهد فى سبيل الله ، ولم يقل إن شاء الله ، فطاف عليهن فلم تحمل إلا امرأة واحدة وجاءت بولد غير كامل الخلقة فأخذته القابلة ووضعته على كرسى سليمان . وقال نبينا صلى الله عليه وسلم «فوالذى نفس محمد بيده لو قال إن شاء الله لجاهدوا فرساناً» فالذى حصل من سليمان هو تركه للمشيئة ، وهذا فيه ارتكاب خلاف الأول ، فعده سليمان ذنباً واستغفر منه . وهذا لا يقدح فى العصمة ، وهذا أظهر ما قيل فى فتنة سليمان ، فلا تلتفت لغيره مما سطر فى بيان معنى الآية :

ماورد فى حق يونس عليه السلام

قال الله تبارك وتعالى : « وذا النون إذ ذهب مغاضباً فظن أن لن نقدر عليه ، فنادى فى الظلمات أن لا إله إلا أنت سبحانك إنى كنت من الظالمين . فاستجبنا له ونجيناه من الغم وكذلك ننجى المؤمنين » .

قد اشتمل هذا التركيب على جمل ظاهرها يحتمل ما يجب تنزيه الأنبياء عنه ؛ أولا قوله : « ذهب مغاضباً »، ثانياً قوله « فظن أن لن نقدر عليه » ، ثالثاً قوله « إنى كنت من الظالمين » وربما تمسك الطاعنون بذلك الظاهر ، ولكن حيث

علمنا ما وجب للأنبياء بالدليل العقلي وجب حمل الآية على ما لا يتنافى مع ماقضى به العقل. وهذا بيان معنى الآية على وجه صحيح لا تنبو عنه :

اذكر يا محمد صاحب الحوت ، وهو يونس بن متى عليه السلام ، إذ ترك قومه غاضباً عليهم ليأسه من إجابتهم دعوته لما رأى منهم الاصرار على معتقدهم مع طول دعوته . وقيل إن غضبه على الملك لا على القوم ؛ فقد روى عن ابن عباس أنه قال : كان يونس وقومه يسكنون فلسطين فغزاهم ملك وسبى منهم تسعة أسباط ونصفاً ، فأوحى الله إلى شعياء النبي عليه السلام ، أن اذهب إلى حزقيل الملك وقل له : يوجه خمسة من الأنبياء لقتال هذا الملك . فقال : أوجه يونس بن متى ، فانه قوى أمين . فدعاه الملك وأمره أن يخرج ؛ فقال له يونس : هل أمرك الله باخراجى ؟ قال : لا ، قال : هل سمانى لك ؟ قال : لا . قال يونس : فهاهنا أنبياء غيرى ، فألحوا عليه فخرج مغاضباً ، فأتى بحر الروم فوجد قوماً هيئوا سفينة فركب معهم ، فلما وصلوا اللجة « أى معظم الماء » تكفأت بهم السفينة وأشرفت على الغرق . فقال الملاحون : معنا رجل عاص ، أو عبد آبق ، ومن رسمنا أنا إذا ابتلينا بذلك أن نقترع فمن وقعت عليه القرعة ألقيناه فى البحر ، ولأن يغرق أحدنا خير من أن تغرق السفينة ، فاقترعوا ثلاث مرات فوقعت القرعة فيها كلها على يونس عليه السلام ، فقال : أنا الرجل العاصى والعبد الآبق ، فألقى نفسه فى البحر ، فجاء حوت فابتلعه ، فأوحى الله تعالى إلى الحوت « لا تؤذ منه شعرة ، فانى جعلت بطنك سجناً له ، ولم أجعله طعاماً لك » ثم لما نجاه الله تعالى من بطن الحوت نبذه بالعراء ـ أي الفضاء الذى لاستر فيه ـ فأنبت عليه شجرة من القرع يستظل بها ويأكل من ثمرها ، حتى اشتد ، فلما يبست الشجرة حزن عليها يونس ، فقال له : أتحزن على شجرة ، ولم تحزن على مائة ألف أو

يزيدون حيث لم تذهب إليهم ، ولم تطلب راحتهم ؟ فأوحى الله تعالى إليه وأمره أن يخرج إليهم . . إلخ القصة . .

وسواء كان خروج يونس لغضبه من قومه ، أو من الملك ، فالخروج هجرة من غير أمر وإذن من الله سبحانه وتعالى ، والذى سهل له ذلك الخروج وتركه لقومه أو للملك هو ظنه أن الله تعالى لا يضيق عليه فى اختياره الخروج ، وهذا بيان لما يجرى مجرى العذر ليونس حيث إنه لم يخرج متعمداً المعصية ، بل لظنه أن الخروج مباح . وعلى هذا البيان يكون معنى « نقدر » فى الآية نضيق ، ومن قبيله قوله تعالى « الله يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر » . وقيل : معناه ظن أن لن نقضى عليه بشىء مجازاة له على تلك الهجرة ، فكان ما كان من المساهمة والتقام الحوت « فنادى فى الظلمات » أى فى الظلمة الشديدة المتكاثفة فى بطن الحوت ، فهى كظلمات لشدتها « لا إله إلا أنت سبحانك » أنزهك تنزيهاً لاتقائك « إنى كنت من الظالمين » لأنفسهم حيث تركت الأفضل وهو انتظار الأمر بالمهاجرة إلى غير الأفضل وهو الخروج بدون أمر ، ودرجات الأنبياء الرفيعة تدعوهم إلى أن يعبروا عن ذلك الأمر الذى هو خلاف الأولى بأنه ظلم . وعلى هذا البيان فليس فى الآية ما ينافى عصمة الأنبياء .

الآيات التى وردت في حق سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم

قال الله تبارك وتعالى : « ما كان لنبى أن يكون له أسرى حتى يثخن فى الأرض ، تريدون عرض الدنيا والله يريد الآخرة والله عزيز حكيم ، لولا كتاب من الله سبق لمسكم فيما أخذتم عذاب عظيم » .

ظاهر هذه الآية ربما يشعر بأن النبي صلى الله عليه وسلم ارتكب خطأ كان يستوجب عذاباً عظيما ، ولكن إذا وقفت على المعنى الصحيح للآية جزمت بأنه

عليه الصلاة والسلام لم يذنب . وإليك بيان سبب نزول الآية ليتضح لك المعنى تمام الاتضاح :

لما انتهى النبى صلى الله عليه وسلم من غزوة بدر ، ورجع إلى المدينة ، كان معه عدد من أسرى الحرب ، فاستشار أصحابه فيما يفعله بهؤلاء الأسرى ، فقال أبو بكر رضى الله عنه يا رسول الله : هؤلاء أهلك وقومك ، قد أعطاك الله الظفر والنصر عليهم أرى أن تستبقيهم ، وتأخذ الفداء منهم ، فيكون ما أخذنا منهم قوة لنا على الكفار ، وعسى الله أن يهديهم بك فيكونوا لك عضداً . وقال عمر بن الخطاب : يارسول الله قد كذبوك وقاتلوك وأخرجوك من بلدك ، فأرى أن تمكننى من فلان لقريب له، فأضرب عنقه،وتمكن حمزة من أخيه العباس ،وعليا من أخيه عقيل ، وهكذا حتى يعلم أنه ليس فى قلوبنا مودة للمشركين . ماأرى أن تكون لك أسرى ، فاضرب أعناقهم ، هؤلاء صناديدهم وأئمتهم وقادتهم . فقال عليه الصلاة والسلام : « إن الله ليلين قلوب أقوام حتى تكون ألين من اللين ، وإن الله ليشدد قلوب أقوام حتى تكون أشد من الحجارة . وإن مثلك ، ياأبا بكر ، مثل إبراهيم ، قال «فمن تبعنى فانه منى ، ومن عصانى فانك غفور رحيم» ومثل عيسى قال « إن تعذبهم فانهم عبادك ، وإن تغفر لهم فانك أنت العزيز الحكيم» . ومثلك ياعمر ، مثل نوح قال « رب لاتذر على الأرض من الكافرين دياراً» ومثل موسى قال « ربنا اطمس على أموالهم واشدد على قلوبهم فلا يؤمنوا حتى يروا العذاب الأليم» وهذا مدح من النبى لأصحابه ، فقد جعل رأى أبى بكر فى هؤلاء الأسرى شبيها برأى إبراهيم وعيسى فى قوميهما ، وجعل رأى عمر فى هؤلاء الأسرى شبيها برأى نوح فى قومه وموسى فى قومه ، فليس الحامل لكل على اختيار رأيه ، إلا إعزاز الدين .

بعد ذلك ، قال النبي لأصحابه ما معناه : أنتم اليوم فى حاجة إلى المال ،واختار الفداء على القتل،فنزلت الآية عتابا للنبي، ومعناها لاينبغي أن يستبقي الأسرى بدون قتل فى مقابلة فداء يأخذه إلا بعد أن يذل الكفر ويفل حزبه ، ويعز الاسلام وينتشر ، ويكون المسلمون فى أمن تام على عقيدتهم ومالهم وأرواحهم، أنتم أخذتم متاع الدنيا والله يريد لكم ثواب الآخرة « والله عزيز » يجعل الغلبة لأوليائه على أعدائه « حكيم » يعلم مايليق بكل حال ويخصه بها «لولا كتاب من الله سبق» لولا حكم سابق من الله فى اللوح المحفوظ وهو أن المجتهد لا يعاقب على اجتهاده وإن أخطأ . «لمسكم فيما أخذتم» لأصابكم لأجل الذى أخذتموه من الفدية «عذاب عظيم». وقد قال كثير من علماء الأصول إن النبي يجتهد ويجوز عليه الخطأ كما يجوز على كل مجتهد من أمته ، غير أنه إذا اجتهد وأخطأ فى اجتهاده ينزل عليه الوحي يبين له أن هذا الحكم الذى وصل إليه باجتهاد يقتصر على هذه الحادثة ،أما فى المستقبل فالحكم غير ذلك .

فالآية حينئذ ليس فيها إلا عتاب النبى صلى الله عليه وسلم على مبادرته إلى الاجتهاد فكان ينبغي أن ينتظر الوحي. ومن قبيل هذه الآية قوله تعالى: « عفا الله عنك لم أذنت لهم حتى يتبين لك الذين صدقوا وتعلم الكاذبين » .

فانها سيقت عتاباً للنبي على ترك الأولى وهو تأخير الاذن بالتخلف لطالبيه ، فانه لو أخر الاذن لهم بالتخلف لظهر كذبهم وافتضحوا على رءوس الأشهاد ، وكان إذن النبي لهم بالتخلف بناء على اجتهاد منه ، وكان الأولى له انتظار الوحي .

* * *

قال تعالى : « وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبي إلا إذا تمنى ألقى الشيطان فى أمنيته فينسخ الله ما يلقى الشيطان ثم يحكم الله آياته والله عليم حكيم ».

ذكر بعض المفسرين فى سبب نزول هذه الآية أنه لما نزلت سورة

« والنجم » اشتغل النبي بقراءتها على الصحابة فلما وصل إلى قوله تعالى : « أفرأيتم اللات والعزى » أجرى الشيطان على لسانه « تلك الغرانيق العلى وإن شفاعتهم لترتجى »، فلما سمعت قريش بذلك فرحت فرحاً شديداً وقالت: إن محمداً قد مدح آلهتنا.

بعد هذا نزل جبريل على النبي وقال له: قد تلوت على الناس ما لم أتله عليك، فحزن النبي حزناً شديداً ، فأنزل الله لتسليته قوله تعالى : « وما أرسلنا » الآية . وقد ارتضى هذا بعض الكاتبين وصار يرتكب التأويل فى بيان معانى الألفاظ حتى خرج عن الطريق الجادة .

والذى عليه المحققون أن هذه القصة من وضع الزنادقة ولا أصل لها ، فان النبي صلى الله عليه وسلم معصوم فيما يتعلق بالتبليغ عن الزيادة والنقص والتغيير والتبديل عمداً أو سهواً ، قال تعالى : « يأيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك وإن لم تفعل فما بلغت رسالته » . ومن تمام العصمة أن لايتسلط عليه الشيطان فى التبليغ ، وإلا لأدى إلى تطرق الشك واحتمال الكذب والغلط فى كل ما يبلغه .

ومعنى الآية على الوجه الصحيح :

وما أرسلنا رسولا قبلك بشرع جديد كابراهيم وموسى وعيسى ، أو نبياً مجدداً لشرع جاء به رسول قبله كأنبياء بنى إسرائيل، إلا إذا تمنى هداية قومه ألقى الشيطان فى قلوب هؤلاء القوم الوساوس التى تنفرهم من قبول ما يتمناه ويطلبه منهم وهو الايمان، ولكن إذا أراد الله هدايتهم أزال تلك الوساوس التى ألقاها الشيطان فى صدورهم ووفقهم لادراك الحقيقة، وإجابة النبي فيما طلب . فالنسخ محو الوساوس وإزالتها ، وإحكام الآيات التوفيق للصواب. فالآية نزلت تسلية للنبي لبيان أن كل مصلح لا بد وأن يلاقى فى طريقه عقبات تكون حاجزاً بينه وبين مطلوبه ، لكن إذا لاحظته عناية اللطيف الخبير ذللت له تلك العقبات حيث كان رائده المصلحة .

وبشرح الآية على هذا الوجه الذى لا تعسف فيه تندفع تلك الشبهات التى تخل بالعصمة ، فيجب التعويل عليه وطرح ما عداه ، وإن قال فلان وتصدى لتأييده فلان .

* * *

قال تعالى : « وإذ تقول للذى أنعم الله عليه وأنعمت عليه أمسك عليك زوجك واتق الله وتخفى فى نفسك ما الله مبديه وتخشى الناس والله أحق أن تخشاه ، فلما قضى زيد منها وطرا زوجناكها لكيلا يكون على المؤمنين حرج فى أزواج أدعيائهم إذا قضوا منهن وطرا ، وكان أمر الله مفعولا » .

ذكر بعض الكاتبين فى تفسير هذه الآية ما حاصله: تبنى رسول الله زيد بن حارثة وكان زيد متزوجا زينب بنت جحش، فتوجه رسول الله يوما إلى بيت زيد فلم يجده، ووجد زوجه زينب، فلما نظر إليها قال سبحان الله، سبحان خالق النور، تبارك الله أحسن الخالقين . ثم خرج ، فلما جاء زيد أخبرته زوجه بهذا الذى حصل فقال لها : لعلك وقعت فى قلب رسول الله ، فهل لك أن أطلقك حتى يتزوج بك، فقالت أخشى أن تطلقنى ولا يتزوج بى؛ فجاء زوجها إلى رسول الله وقال له : أريد أن أطلق زينب ، فقال له أمسك عليك زوجك ، واتق الله ، قال هذا بحسب الظاهر ، وفى الواقع كان يود الطلاق والتزوج بها .

هذا الذى ذكر فى معنى الآية تضمن أموراً أولا: أن النبى أثرت عليه الشهوة فخضع لها وتمنى أن يطلق زيد زوجه .

ثانيا : أنه أظهر خلاف ما أضمره فانه كان يود طلاق زوجها لها ، ومع ذلك يقول له : أمسك عليك زوجك .

ثالثا : أنه ارتكب الحسد حيث تمنى زوال نعمة غيره ، وهى قطع الصلة التى بين زيد وزوجه .

هذه الأمور التى تضمنتها هذه القصة المحكية ، تقدح فى العصمة ، بل تخل بالمروءة والشرف ، فان فيها التعريض بامرأة زيد وإظهار الميل إليها من

طريق خفي في غيبة زوجها كما ينبيء عنه قوله : سبحان خالق النور ، تبارك الله أحسن الخالقين، فانه يؤول إلى التعجب من فرط جمالها ، وفيها حسد زيد على تلك الزوجة ، وتمنى زوال تلك النعمة عنه .

وفيها الخضوع لسلطان الشهوة ، هذا الذى لايوجد إلا فى البهائم ، وما كان على شاكلتها ، وفيها وصفه بالنفاق حيث أظهر خلاف ما أبطن .

وحيث كان هذا مخلا بالعصمة ، وجب رده وطرحه وعدم النظر إليه .

واسمع معنى الآية وسبب نزولها على الوجه الصحيح الذى لا يصادم ماقضى به العقل وأيده النقل الصحيح :

تبنى رسول الله زيد بن حارثه ، وكان التبنى معتادا بين العرب، وتزوج زيد زينب بنت جحش ، وكانت دائما تفخر عليه بشرفها وعلو نسبها ، فكان يشكو للنبى ما يحصل منها .

عقب ذلك أوحى الله إلى النبى بأن زيدا سيطلق زوجه وستكون زوجا لك، والحكمة فى ذلك أن يبين للناس أن التبنى ليس كالبنوة الحقيقية فيجوز للانسان أن يتزوج مطلقة من تبناه ولا يجوز له أن يتزوج مطلقة ابنه، بعد هذا الوحى كان يأتى زيد إلى النبى صلى الله عليه وسلم ويقول يا رسول الله انها لا تزال تفخر وتتعالى على، إنى أريد أن أطلقها ، فيقول له النبى أمسك عليك زوجك واتق الله فى شأنها. كان يقول هذا مع كون الوحى نزل عليه بأن زيدا سيطلقها وأنك ستتزوج بها .

والحامل له على ذلك القول مع كون الوحي نزل عليه بما يحصل ،فهو فى حل من الأخبار بالحقيقة ، أنه رأى لو أظهر الوحى الذى نزل عليه من أن زيدا سيطلقها وأنه سيتزوج بها لقيل عليه من قبل أعدائه إنه تزوج مطلقة من تبناه . فنزلت الآية عتابا له تقول «وإذ تقول للذى أنعم الله عليه» بتوفيقه للاسلام «وأنعمت عليه» بالتبنى وتعهده بالتربية «أمسك عليك زوجك» ولا تطلقها «واتق الله» فى أمرها «وتخفى

فى نفسك ما الله مبديه » تستر على الناس أمراً سيظهره الله وهو أن زيداً سيطلقها وأنك ستتزوج بها وتخاف من اعتراض الناس عليك وقولهم إن محمداً تزوج زوج ابنه والحال أن الله تعالى أحق بالخشية والخوف . وهذا محط العتاب من الله لنبيه .

وكأنه يقول له كان الأولى بك أن تسكت أو تظهر الأمر للناس فان طلاق زيد لزوجه وتزوجك بها لحكمة عظيمة الشأن سيترتب عليها تشريع كبير أشارت الآية إليه فى قوله تعالى : « فلما قضى زيد منها وطراً » حاجة « زوجناكها لكيلا يكون على المؤمنين حرج فى أزواج أدعيائهم » صيرناها زوجة لك يا محمد لأجل أن لا يكون على المؤمنين ضيق فى تزوج أزواج أبنائهم بالتبنى « إذا قضوا منهن وطراً » إذا طلقهن الأدعياء وانقضت عدتهن فان لهم فى رسول الله أسوة حسنة .

و بيان الآية على هذا الوجه لا يقدح فى العصمة، لأنه لم يقع من النبى إلا ترك الأولى ، بل يتفق مع ما قضى به العقل، فيجب التعويل عليه وعدم النظر إلى غيره.

*
* *

وقال الله تعالى : « إنا فتحنا لك فتحاً مبينا ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر ويتم نعمته عليك ويهديك صراطاً مستقيما، وينصرك الله نصراً عزيزا ».

قد ذكر لفظ المغفرة فى هذه الآية وهو يشعر بارتكاب ذنب ، ولكن إذا سمعت معنى الآية زالت تلك الشبهة :

« إنا فتحنا لك فتحاً مبينا » : إنا يسرنا لك قهرك للكفار ، وانتصارك عليهم بمكابدة الحروب ، واقتحام موارد الخطوب ، وتحمل المشاق لمصلحة تترتب على ذلك ، وهى نوالك السعادة الأخروية ، والسعادة الدنيوية . عبر عن السعادة الأخروية بقوله : « ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر » ، فان المغفرة هى الستر أو التجاوز عن المؤاخذة، ويلزمها قبول الله للعبد المغفور له ورفع درجاته فى الآخرة. فتكون المغفرة مستعملة فى لازمها وهو السعادة الدائمة ، والقرينة على ذلك استحالة

المعنى الحقيقى ، فان الدليل قائم على عصمة النبى من ارتكاب الذنب ؛ وأما السعادة الدنيوية فعبر عنها بقوله « ويتم نعمته عليك » باعلاء الدين وانتشاره فى البلاد واستجابة دعائك فى طلب فتح مكة وغيره . « ويهديك صراطاً مستقيما » يرشدك إلى الطريق السوى فى تبليغ رسالتك إلى قومك، وإقامة حدود الشرائع. « وينصرك الله نصراً عزيزاً » يقل وجود مثله ويصعب مناله .

وقال تعالى فى سورة « والضحى » : « ووجدك ضالا فهدى » .

نظر قاصرو الادراك إلى ظاهر هذا التركيب ، فظنوا أن النبى كان حائداً عن الطريق الجادة ، مائلا عن الحق فهداه الله إليه . ومنشأ ذلك الظن عدم الاحاطة بمدلولات الألفاظ ومعانيها ، التى تستعملها العرب فيها ، ولو كان عندهم علم بمدلولات الألفاظ ، وعلم بما يجب للأنبياء من الصفات التى يجزم العقل بثبوتها لهم ، لسهل عليهم الأمر وأدركوا الحقيقة .

ولبيان معنى الآية على الوجه الصحيح نقول :

الضلال أنواع : ضلال الشرك ، وضلال الهوى ، وضلال الطريق .

قام الدليل العقلى وإجماع أهل الملل على أن الشرك مستحيل على الأنبياء قبل البعثة وبعدها عمدا وسهوا . فبطل إرادته وحمل الآية عليه. وقام الدليل العقلى على أن صدور الكبائر من الأنبياء مستحيل فلا تصح إرادته من الآية وحملها عليه ، فلم يبق معنا إلا النوع الثالث وهو ضلال الطريق فيجب حمل الآية عليه. وحينئذ نقول :

إن النبى صلى الله عليه وسلم نشأ بين قومه مطبوعا على التمسك بالكمالات والبعد عن كل ما يشعر بخسة أو نقص فى الادراك أو عدم مروءة . ومن كان هذا شأنه تتوق نفسه دائما إلى السعى فى المصالح العامة والنظر فيما

يرفع شأن قومه وعشيرته ، فكانت نفسه تتطلع إلى انتشار الأمن وحقن الدماء والبعد عن كل ما يشين بالخلق .

هذا النبي المتصف بهذه الأوصاف،نظر فى الناس فرأى منهم المتمسك بعبادة الأصنام مع كون العقل السليم ينفر من هذا بمجرد النظر .

ورأى المتمسك بدين النصرانية مع كونه دين توحيد قد حاد عن الطريق الجادة فخلط دينه بما فيه شائبة الشرك . كذلك المتمسك بدين اليهودية .

هذه الطوائف الثلاثه تباينت فى معتقداتها وأخلاقها واستعدادها فالوصول إلى طريق يناسب هذه الطوائف جملة مع ذلك التباين ليس من السهل .

لهذا كان النبي يفكر دائما فى سلوك طريق ينقل به هؤلاء الناس من تلك الغفلة إلى مافيه سعادتهم ، فكان يخلو بغار حراء كى تصفو روحه ويتصل بالخالق اتصالا تاما حتى يرشده إلى الطريق الموصل . ولا زال هكذا إلى أن طلعت عليه شمس النبوة ونزل عليه جبريل وبين له الطريق الذى يسلكه ، فزالت تلك الحيرة . وحينئذ يكون معنى قوله تعالى « ووجدك ضالا فهدى » وجدك متحيرا فى الطريق الذى تسلكه لهداية هذه الطوائف فهداك إلى الطريق الذى أرشدك اليه جبريل عليه السلام .

وبيان الآية على هذا الوجه الذى سمعته ليس فيه شىء يخل بعصمة النبي صلى الله عليه وسلم .

وقال الله تبارك وتعالى « ألم نشرح لك صدرك ، ووضعنا عنك وزرك ، الذى أنقض ظهرك، ورفعنا لك ذكرك ،فان مع العسر يسرا » .

ربما يفهم الناظر إلى ظاهر قوله تعالى « ووضعنا عنك وزرك » أن المراد من الوزر الذنب كما هو بعض إطلاقاته فتكون الآية دالة على أن النبي ارتكب ذنبا وعافاه الله من المؤاخذة ، به وهذا ينافى ما ثبت بالدليل العقلى وهو العصمة .

لهذا نقول ليس الأمر كما ظن ذلك الناظر ، إنما الآية سبقت لحكاية ما كان عليه الرسول فى مبدأ أمره وما آل إليه أمره فيما بعد .

كان الوحى فى مبدأ الأمر شديداً على النبى حين مقابلة الملك نظراً لعدم العهد به من قبل حتى كان النبى يذهب إلى أهله عقب الوحى ويقول « زملونى زملونى » وكان نشر الدعوة فى مبدأ الأمر متعسراً لعدم عهد قومه بذلك الدين الجديد ، واختصاص النبى بالدعاية اليه من بينهم .

ثم تغير الحال بعد ذلك فحصل عند النبى إلف بالملك، وتمكن من نشر الدعوة؛ فشبه حاله بحال رجل حمل شيئاً ثقيلا على ظهره ثم وضعه .

لاشك أنه قبل وضع ذلك الشيء عن ظهره يكون متألما متعبا،وبعد وضعه عن ظهره يزال الألم والتعب . .

كذلك النبى بعد أن كان فى مبدأ الأمر يلاقى شدائد فى تحمل الوحى ونشر الدعوة، أبدله الله سبحانه وتعالى راحة بعد عناء ويسراً بعد عسر «فان مع العسر يسرا ، إن مع العسر يسرا » .

وعلى هذا البيان فليس فى الآية ما يخل بعصمة النبى صلى الله عليه وسلم .

هذه هى الآيات التى وقفت عليها فى هذا الباب، وأظن أن بيانها على هذا الوجه لا يجعل للطاعنين سبيلا .

النهج الذى اتبعه الرسل في الدعوة وهداية الأمم التى أرسلوا اليها

علمت مما سبق فى بيان حاجة النوع الانسانى إلى الرسل أنهم من الانسان بمنزلة الروح من الجسد ، وأن بعثهم حاجة من حاجات العقول البشرية ، فلم تحصل رسالة أى نبى إلا وكانت الحاجة اليها ماسة والضرورة إليها داعية .

هذه الحاجة هى تطهير الأرواح من دنس الشرك والضلال والرقى بها إلى أعلا الدرجات . فالرسالة إذن من النعم التى تفضل الله بها على ذلك الانسان وميزه بها عن باقى الكائنات .

فأول عمل قام به الانبياء مع أممهم هو ارشاد العقول إلى أن الاله الذى يجب أن نعبده ونلجأ إليه فى حاجاتنا هو الله سبحانه وتعالى المنفرد بالتصرف والاختراع والابداع ، المتصف بالكمالات المنزه عن النقائص ، المخالف للحوادث ، وإلى أن ما عكفوا على عبادته من الأصنام والكواكب والنار لم تتحقق فيه صفات الاله ، فليس مصدراً للايجاد ولا قادراً على التصرف ، فالاله لجميع الخلائق واحد هو الله سبحانه وتعالى .

قال تعالى : « وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحى إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون » .

وقال تعالى « ولقد بعثنا فى كل أمة رسولا أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت »

غير أن طرق دعوة الناس إلى توحيد البارى وانفراده بالألوهية وإبطال ألوهية ما عداه اختلفت لتفاوت مراتب الناس واستعداداتهم ، فمنهم الخواص وهم أصحاب النفوس العالية المستعدون لادراك المعانى الراغبون فى تحصيل اليقين وإدراك الأشياء على حقيقتها .

وهذا الفريق كانت الأنبياء تسلك فى دعوته وهدايته إلى الدين الحق إقامة الحجج القطعية المفيدة للعقائد المزيلة للشبه لأن استعدادهم يؤهلهم إلى إدراك تلك الحجج والخضوع لما تقتضيه .

ومنهم العوام وهم الذين ألفوا المحسوسات وتمسكوا بالعادات وليس عندهم الاستعداد الكافى لادراك البرهان والدليل القطعى ولكنهم لا عناد عندهم .

وهذا الفريق كانت الأنبياء تختار فى إرشاده إلى التوحيد طريقا يناسب

استعداده وهو الأدلة الاقناعية والعبر النافعة التى ترغبهم فى إجابة الرسول وتصديقه فى قوله .

ومنهم من امتاز عن العوام فكان إدراكهم أرقى ولكن نفوسهم تدنست بصفات رديئة من خبث وعناد وتعصب وتقليد ضال حتى أصبحت لا تخضع لسلطان الحق بل تجادل وتعاند .

هذا الفريق كانت الأنبياء تسلك معه طريق المجادلة بأحسن الطرق لتلين عريكته وتزول شكيمته ، فكانوا يرفقون بهم ويختارون فى الاستدلال أيسر الوجوه وأسهلها عليهم كما حصل من سيدنا إبراهيم مع قومه .

وقد لا يقتصر هذا الفريق على العناد وإنكار الحق مع معرفته ، فيعمل على إحباط الدعوة وصد الناس عن سبيل الله ويخيف الآمن ويتوعد المتمسك بالحق .

وفى تلك الحالة قد يلجأ النبى إلى الدعاء على قومه فيحيق بهم العذاب، أو يأذن الله تعالى لنبيه بالجهاد حتى يتمكن من نشر الدعوة وإضعاف شوكة هؤلاء المعاندين فيصبح الناس فى أمن من شرهم ويدخلون فى دين الله أفواجا مطمئنين على أنفسهم وأهليهم وأموالهم .

فاذا أجاب الناس دعوة نبيهم إلى التوحيد وأقلعوا عن عبادة الأوثان ورجعوا إلى رشدهم ، أرشدهم إلى ما يذكرهم بعظمة ذلك الاله فى أوقات مختلفة من صلاة وصوم وزكاة وحج ، وإلى ما يرجعون إليه فى معاملاتهم مع بعضهم وما يخضعون له عند التشاحن والتخاصم وتعدى بعضهم على بعض .

كذلك كل نبى كان يطلب من قومه أن يقوموا أنفسهم بالأخلاق الفاضلة كالصدق والأمانة والمحافظة على العهود والرحمة بالضعفاء .

ويفصل لهم مايؤهلهم لرضا الله تعالى وما يعرضهم لسخطه عليهم مع بيان ما أعد لهم فى الدار الآخرة من النعيم إذا وقفوا عند حدود الله تعالى .

هذه الشؤون المذكورة اشترك جميع الأنبياء فى دعوة قومهم اليها وإن حصل اختلاف فانما هو فى كيفيات العمل. قال تعالى « واذكر فى الكتاب إسماعيل إنه كان صادق الوعد وكان رسولا نبيا ، وكان يأمر أهله بالصلاة والزكاة وكان عند ربه مرضيا » وقال تعالى عن لسان إبراهيم «رب اجعلنى مقيم الصلاة ومن ذريتى» وقال تعالى عن لسان عيسى « قال إنى عبدالله آتانى الكتاب وجعلنى نبياً وجعلنى مباركا أينما كنت وأوصانى بالصلاة والزكاة مادمت حيا ، وبرا بوالدتى » .

مشيخة المقارىء المصرية في عهدها الحاضر

لم تكن مشيخة المقارىء بالديار المصرية من الهنات الهينات كما تواضع عليه الناس منذ آماد السنين، فقد كانت هذه المشيخة من النوافل التى لا يؤبه لها إلا بقدر يمكنها من الاشراف على قراء القرآن والدلائل، وقسط من قراءة البخارى أو نحوه، تنفيذاً للشروط التى وردت فى الوقوف والحبوس. ومع هذا التقدير المتواضع فى سالف الزمن، لم يفتح الناس أعينهم على الحقائق المتوارية فى شرائط الواقفين، وكتبهم التى رصدوا فيها حبوسهم على قراء القرآن والدلائل وكتب الحديث. فان الواقفين، أسبغ الله عليهم جزيل رحمته، قد أدوا إلى الانسانية أولا، وإلى خدمة القرآن ونشر فنونه وأحكامه، واستنباط الغريب من ألفاظه وطرقه. ثانياً بما فتحوه على الناس من أبواب واسعة جداً من الخيرات المرصدة، والحبوس السابغة على المشتغلين بعلوم القرآن نعما كثيرة.

لكن والأسف البالغ يملأ الجوانح، قد ظلت هذه الجواهر مكنونة، حتى كاد الناس يضلون مكمنها، بل يجهلون مصدرها.

وقد مرت حقبة من الزمن على بعض الأشياخ الذين ملكوا بزمام مشيخة المقارىء المصرية، كانوا فيها بعيدين عن كل إصلاح ينهض بمهنة القراء ويرد إليهم حبوسهم ويجعلها جنى شهياً فى متناول أيديهم، فكانوا لا يعرفون من شؤونها إلا كما يعرف الجاهل من العلم، بل كما يعرف الضرير من النور.

ومع ذلك فقد كانت مشيخة المقارىء مغرية بألقابها ، وعناوينها ، حتى طمع فيها أكبر العلماء ، بل نالها شيخ يشار إليه بالأصابع ، مما لا محل للعرض له فى هذه العجالة . وهكذا ظلت المشيخة بعيدة عن كل إصلاح غير مرجو فى تلافى النقص الذى حل بها بكر السنين والأيام ، حتى جاء عهد المشيخة الحاضرة فاعتبره بعض المتأخرين فى الرأى ثورة على التقاليد ، وخروجاً على مألوف العادات ، فيمن تعاقبوا على مشيخة المقارىء ، وظل الشيخ الناهض بأعبائها صامتاً كالجبل الراسخ يعمل فى سكون هو أفصح من كل دعاية ، وجلبة ، وضوضاء ، والقراء لا يعرفون من أمر هذا الرجل إلا كما يعرفون عن أسلافه .

دخلت ذات يوم على المرحوم الشيخ المراغى فى مكتبه بمشيخة الأزهر ، وكنت محرراً بمجلة الأزهر يومئذ ، وكان من شهود المجلس ممن لايزال على قيد الحياة، فضيلة الأستاذ الكبير الشيخ عبد المجيد سليم مفتى الديار المصرية السابق ؛ وفضيلة الأستاذ الأكبر الشيخ محمد مأمون الشناوى ، شيخ كلية الشريعة يومئذ . فسألت المغفور له الشيخ المراغى أسئلة ثلاثة :

الأول : هل انتهيتم إلى رأى فى تعيين شيخ جديد لمشيخة المقارىء ؟ .

الثانى : وهل اتجهتم إلى تعيينه من بين العلماء ؟ .

الثالث : وهل انتويتم أن تحددوا للشيخ الجديد فى لائحة داخلية لمشيخة المقارىء تضعونها بواسطة لجنة فنية،تحددون فيها عمل شيخ المقارىء ، وتطلقون له العنان فى الكشف عن حبوس سمعت من المرحوم الشيخ محمد حسنين العدوى وكيل الجامع الأزهر السابق أنها كثيرة جداً ، والوقت لم يتح رجلا ينبش عنها بين الدفائن وطيات الكتب ، حتى يهيىء لخدمة القرآن وسدنته جواً من السعة ، يطمئنون به على حياتهم ، ولو بقدر يسير ، ويحط عن كواهلهم تلك الأعباء الثقال التى أعنتتهم . فالقارئ مثلا يأخذ عشرين قرشاً فى الشهر ؛ وتفرض عليه التقاليد

الموروثة فى المشيخة إن يذهب إلى محل الأداء يومياً ، وأن ذلك الوضع لا يمكن أن يساير الحياة العادية لرجل يخدم كتاب الله ، ويؤدى ما شرطه الواقفون ، وهو فى ضيق وعسر .

هذا ماانتهى إليه الحديث مع المرحوم الشيخ المراغى ، فكان جوابه كالآتى :

بعد التحرى وطول الأناة والبحث انتهينا إلى رجل موثوق به كل الثقة ، هذا ما أستطيع أن أقوله لك الآن ، وأما عن السؤال الثالث فالجواب عنه هو الجواب الأول ، لأن الرجل إذا أحس بثقل التبعات الملقاة على كاهله ، وكانت فيه روح وثابة استطاع أن يحقق السعادة والمتعة والرشـــاد لأهل ذلك الفن ، وتستطيع أن تسأل صديقك مصطفى باشا عبد الرازق وزير الأوقاف عن التفاصيل ، وهو يستطيع أن يجيبك بأوسع من ذلك . ووقف الحديث فى الموضوع عند هذا الحد ثم خضنا فى أحاديث متنوعة .

وبعد ذلك بخمسة وعشرين يوماً صدر قرار بتعيين الشيخ الحالى شيخاً للمقارىء بالديار المصرية ، توطئة لأمر ملكى صدر بتعيينه دون سابقيه . وكنت أتردد على منزل المبرور المشكور المغفور له حضرة صاحب الفضيلة والمعالى الأستاذ الأكبر الشيخ مصطفى عبد الرازق ، فى كل ليلة تقريباً ، وذات ليلة أخبرته بما جرى بينى وبين الشيخ المراغى فى مكتبه ، رجاء أن أظفر منه بجولة حول الشيخ الجديد الذى لم تكن لى به صلة ، وكان المرحوم مصطفى باشا رجلا حذراً فيما يصدر عنه ، نزاعا إلى البسط الذى يرى فيه شبهاً متلاحقة تحيط بأطرافه .

أما الشىء الذى يكتنفه النور والعرفان ، فقد كان فيه موجزاً مقلا ، وهنا قال لى : لا أريد أن أحدثك عن الشيخ الجديد بأكثر من قول الشاعر : « تلك آثارنا تدل علينا » ، ولا أريد أن أقول لك شيئاً آخر سوى أن هذا الشيخ موسوعة علم ، وأدب وحياء ، وأنه فوق إلمامه بفنون القراءات ، وكثرة

مؤلفاته وكتبه القيمة فى شتى مناحى علوم القرآن، مما جعله منقطع النظير، فانه وراء ذلك شيخ تقى، تواق إلى الاصلاح، نزاع إلى التجديد. وهذا ماعرفته فى حديثه أصوره لك فى أدق تصوير. ثم انتهى الحديث إلى حيث وقفنا، وبعد ذلك خضنا فى أحاديث أخرى.

أما الكشف عن أعماله وآثاره فى مشيخة المقارىء، مما شغل سمع الزمان وبصره وأوحى به إلى سجل الصالحات من الأعمال، فكتبت له أعمال الخلود، مما رفع مستوى القراء إلى أوج الكمال، أو إلى ما يقرب منه، وتلك المشروعات التى احتوتها خطته فى التجديد والاصلاح، والبحث عن خير القراء؛ وتلك الثقة المتزايدة التى حملت المشتغلين بعلوم القرآن فى الشرق الأدنى والأوسط، وبلاد المغرب، بل وعلماء المسلمين فى بقاع الأرض، على أن يهتدوا بهديه، وأن يستنيروا بارشاده العلمى، بما يحمله البريد من وقت إلى آخر عن تلك البلاد النائية، فسنفرد له فصولا متلاحقة، معتمدين فى استقاء أنبائها على ما بين أيدينا من الوثائق.

عباس طه
المحامى

عمر بن الخطاب يقيم الحدود

جاءتنا مقالة بهذا العنوان، ذكر فيها حضرة كاتبها أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه أقام حد الزنا على ولده أبى شحمة ...

ونحن ننبه هنا إلى أن العلماء الأثبات والحفاظ الثقات قد حققوا أن هذه القصة مختلقة مفتراة. لذلك آثرنا إغفال المقالة والتنويه بهذه الحقيقة ... على أن عدل أمير المؤمنين عمر بن الخطاب وشدته فى الحق، فى غنى عن هذه الأكاذيب.

لا تعارض فى آيات الكتاب الكريم

ينطق بالحق ، ويخبر بالحكمة ، ويلهم النفوس تقواها ، ويرشدها إلى خيرها وهداها ؛ كتاب أحكمت آياته ، وتسامت معانيه وألفاظه ، لاتجد من بينها تعارضاً ولا اختلافا ، ولا تهافتاً ولا اضطرابا ، بل تجد دقة فى الوضع ، وجمالا فى التصوير ، وإحكاما وإتقانا ، وأسلوبا بهر العقول ، وتخاذل أمامه كل أسلوب . عنت له الوجوه ، وخشعت عنده القلوب ، وخرت أمامه أساطين البلاغة والفصاحة .

وكيف لا يكون كذلك وهو من لدن حكيم خبير ، جاء بالآيات البينات والدلائل الواضحات ، والروعة والجلال « ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيراً » .

وما تمشدق به الملحدون الذين لم يتذوقوا طعم الايمان ولم يجدوا حلاوته ، من دعوى وجود اختلاف وتعارض بين بعض آياته، فذلك يرجع إلى أحد أمرين: إماللعناد والمكابرة وتلمس أتفه الشبه التى لاتلبث أن تزول بمجرد النظر الصحيح، وإما للجهل بأساليب الكتاب العزيز التى لا يعرفها إلا من مارس البلاغة والبراعة ، وعرف ضروب التفنن فى أساليبها ، وتذوق مزاياها وخصائصها .

وإنى أسوق أقوى ما تمسكوا بخيوطه ، وتعلقوا بأهدابه ، مبيناً أنها خيوط عنكبوت لا تماسك ولا تقوى على حماية من يعتمد عليها ، ولا تحفظه من التردى فى حفرة باطله .

وردمن بين آيات الكتاب آيات تنطق أن خلق الأرض تقدم خلق السموات وأن خلقها استغرق ثمانية أيام ؛ وآيات تنطق أن خلق السموات تقدم خلق الأرض ، وأن خلقها استغرق ستة أيام مع أنه لا يوم إذ ذاك .

ويبدو للناظر فى ظاهر ذلك ما يوهم الاختلاف والتعارض . لذلك كان من

الخير أن نعرض لتلك الآيات بالبيان حتى تسفر الحقيقة مشرقة الوجه واضحة الجبين لا يعلوها غبار ولا يلحقها شين .

ورد قول الله تعالى من سورة النازعات « أأنتم أشد خلقاً أم السماء ، بناها ، رفع سمكها فسواها ، وأغطش ليلها وأخرج ضحاها ، والأرض بعد ذلك دحاها » صريحاً فى معناه واضحاً فى دلالته على أن خلق السماء تقدم خلق الأرض ، حيث ذكر خلق السماء وما يتعلق بها ، ثم ذكر خلق الأرض وما يتعلق بها ، ثم أردف ذلك بقوله « والأرض بعد ذلك دحاها » أى بعد أن خلق السماء وما يتعلق بها دحا الأرض وبسطها . بينما نجد الآيات من سورة فصلت « قل أئنكم لتكفرون بالذى خلق الأرض فى يومين .. إلى قوله : فقضاهن سبع سموات ، تفيد بظاهرها أن خلق الأرض تقدم خلق السموات ، خصوصاً الاتيان بكلمة (ثم) التى هى للترتيب بعد الفراغ من ذكر خلق الأرض وما يتعلق بها ، وتفيد أن خلق الأرض كان فى يومين لقوله « خلق الأرض فى يومين » وأن خلق ما يتعلق بالأرض كان فى أربعة أيام ، لقوله « وقدر فيها أقواتها فى أربعة أيام » وأن خلق السماء كان فى يومين ، فتكون مدة خلق الأرض والسماء ثمانية أيام لا ستة .

ومن هنا اختلف العلماء فى طريق العلاج لحل هذه المشاكل ؛ فرأى بعضهم أن خلق الأرض تقدم خلق السماء كما هو منطوق قول الله تعالى « قل أئنكم لتكفرون بالذى خلق الأرض فى يومين وتجعلون له أنداداً ، ذلك رب العالمين وجعل فيها رواسى من فوقها وبارك فيها وقدر فيها أقواتها فى أربعة أيام سواء للسائلين ثم استوى إلى السماء وهى دخان فقال لها وللأرض ائتيا طوعا أو كرها قالتا أتينا طائعين . فقضاهن سبع سموات فى يومين ، وأوحى فى كل سماء أمرها »

فأنت ترى هذه الآيات قد تحدثت عن خلق الأرض وما يتعلق بها أولا ، ثم جاءت كلمة ثم التى هى للترتيب مع التراخى الزمانى ، وتحدثت عن خلق السماء وما يتعلق بها ثانياً .

وما ورد من سورة النازعات من قوله « والأرض بعد ذلك دحاها » بعد ذكر خلق السماء وما يتعلق بها أولا ؛ فمعناه أنه تعالى خلق الأرض أولا ثم خلق السماء ، ثم قصد إلى الأرض فدحاها وبسطها . وبذلك لا يكون هناك تعارض ولا اختلاف بين الآيات ، وهذا يوافق المروى عن ابن عباس ، فقد روى البخارى أن ابن عباس سئل عن التعارض الحاصل بين قول الله تعالى «والأرض بعد ذلك دحاها » وبين قول الله تعالى « أئنكم لتكفرون بالذى خلق الأرض فى يومين . إلى قوله : طائعين ، فأجاب بأنه تعالى خلق الأرض فى يومين ، ثم خلق السماء فى يومين آخرين ، ثم دحا الأرض . ودحوها أن أخرج فيها الماء والمرعى وخلق الجبال والآكام فى يومين آخرين ، فذلك قوله : « دحاها » .

ولما كان هذا لا يساعده النظم الكريم ولا تقتضيه جزالته ، بل تنافيه ، لأن الآيات ذكرت خلق الأرض فى يومين ، وذكرت خلق مايتعلق بالأرض من خلق الجبال والأشجار والنبات والحيوان فى يومين آخرين ، وذلك لا سبيل إليه إلا بعد أن تصير الأرض مدحوة ومبسوطة ، وبعد ذلك قال « ثم استوى إلى السماء » فليس من شك فى أن ذلك يقتضى أن يكون خلق السماء بعد دحو الأرض وبسطها وهو يطابق ماورد من سورة البقرة « هو الذى خلق لكم مافى الأرض جميعاً ثم استوى إلى السماء فسواهن سبع سموات » إذ لا يكون خلق ما فى الأرض جميعاً بدون أن تكون مدحوة ومبسوطة ـ لما كان الأمر كذلك رأى بعض العلماء أن خلق السماء تقدم خلق الأرض كما هو منطوق قول الله تعالى من سورة النازعات «والأرض بعد ذلك دحاها» أى بعد المتقدم ذكره « أأنتم أشد خلقاً أم السماء ؛ بناها ، رفع سمكها فسواها ؛ وأغطش ليلها ، وأخرج ضحاها » .

يعضد هذا ويقويه قول الله تعالى من سورة الأعراف « إن ربكم الله الذى خلق السموات والأرض فى ستة أيام ثم استوى على العرش» وقوله من سورة هود « وهو الذى خلق السموات والأرض فى ستة أيام وكان عرشه على الماء » ومن

سورة ق « ولقد خلقنا السموات والأرض وما بينهما فى ستة أيام وما مسنا من لغوب » لأنها تتحدث عن مبدأ الفطرة . ومن حسن السبك وجودة النظم أن ما يذكر أولا يكون ظاهراً فى أنه هو المخلوق أولا ، وقد ذكر خلق السماء فى هذه الآيات قبل ذكر خلق الأرض ، وأن قول الله تعـــالى فى سورة فصلت « ثم استوى إلى السماء وهى دخان » بعد أن ذكر خلق الأرض وما يتعلق بها لا يستلزم تقدم خلق الأرض على خلق السماء ؛ لأن كلة (ثم) سيقت لعرض تعداد النعم لا لغرض إفادة ترتيب الخلق ، أو يقال إن التقدير ثم كان قد استوى إلى السماء ، كما فى قوله تعالى « قالوا إن يسرق فقد سرق أخ له من قبل » إذ معناه إن يكن سرق . وأنت خبير بأن قصد تعداد النعم لايمنع إفادة (ثم) الترتيب ، لأن هذا هو معناها ، كما أن تقدير كلمة كان أى ثم كان قد استوى ، يتنافى مع ماعليه القرآن من البلاغة واستقامة معانيه ، لما تقتضيه كلمة (ثم) من التأخير ، وما تقتضيه كلمة كان من التقديم ، وفى ذلك من التنافى مالا يخفى .

وواضح أن القول بتقدم خلق السماء على الأرض ليس بالحصيف ولا بذى الرأى السديد ، وإن عزى إلى قتادة وارتآه كثير من العلماء ، لأنه يتنافى مع جزالة النظم الكريم ، وتتهافت معه معانى الآيات . ألا ترى إلى قوله تعالى « ثم استوى إلى السماء وهى دخان فقال لها وللأرض ائتيا طوعا أو كرها قالتا أتينا طائعين » كناية عن إيجاد السماء والأرض ، فلو تقدم خلق السماء خلق الأرض لكان قوله « ائتيا طوعا أو كرها » مقتضيا إيجاد الموجود وتحصيل الحاصل . ومثل هذا يكون بمعزل عن ساحة كتاب اختص بمزايا لا يدانيه فيها سواه .

والذى يصح أن يكون جديراً بالقبول فى هذا الموضوع : أن يحمل الخلق فى قوله تعالى « أئنكم لتكفرون بالذى خلق الأرض فى يومين ... الآيات » على التقدير والقضاء لا على الايجاد والحصول ، أى قدر وجود الأرض وحكم بأنها ستوجد فى مقدار يومين ؛ وبذلك تتلاشى شبهة : كيف كان ذلك فى أيام مع أنه

لا يوم إذ ذاك ، ضرورة أن اليوم يمتاز عن الليلة بطلوع الشمس وغروبها ولا شمس ولا قمر . « وبارك فيها وقدر فيها أقواتها » أى قدر وقضى أن يكثر خيرها بخلق أصناف الحيوانات وأنواع النبات على ماتقتضيه الحكمة ، وتستدعيه مصلحة العباد « فى أربعة أيام » أى فى تتمة أربعة أيام مقدار يومين آخرين منضمين إلى مقدار يومى خلق الأرض ، فتكون مدة خلق الأرض وما يتعلق بها مقدار أربعة أيام ، وتكون مدة خلق السماء يومين ، وبذلك تتعلق آيات فصلت بالآيات الناطقة بأنه تعالى خلق السموات والأرض وما بينهما فى ستة أيام .

ثم شرع سبحانه وتعالى فى بيان التكوين والايجاد بقوله : « ثم استوى إلى السماء وهى دخان فقال لها وللأرض ائتيا طوعاً أو كرها ، قالتا أتينا طائعين ، فقضاهن سبع سموات » أى ثم قصد إلى السماء فقال لها وللأرض التى قدر حصولها وحصول مافيها كونا وإحداثا وفقا لما قدرنا وأردنا فكانتا على مااقتضته حكمته البالغة من كمال الاحكام والاتقان وجمال التصوير . وهذا تمثيل وتصوير لكمال قدرته تعالى وأنه لايمتنع عليه تعالى شىء مما قدره وتعلقت قدرته بحصوله وإيجاده وبهذا انحسر اللثام واتضح المقام أن «ثم» إنما هى للترتيب بين التقدير والايجاد ، لا بين إيجاد الأرض وإيجاد السماء . ولا أدل على ذلك من أن هذه الآيات إنما سيقت للتدليل على وحدانية الله تعالى وتنزيهه عن أن يكون له شريك وند ، لأن مبدع هذه الكائنات وهذه الأجرام العظيمة ، وتلك النعم الجزيلة ، لا يصح فى العقول السليمة أن يكون له أنداد وأن يكفر ، بل هو المستحق لأن يعبد ويشكر دون سواه .

وإنك لترى على هذا كيف تجاوبت أطراف النظم ، وتعانقت آياته ، ولمعت من بينها شواهد البيان ومخايل الأساليب العالية ، وظهرت جزالته واستقامت معانيه مع الروعة والجلال .

الطيب النجار
المدرس بكلية أصول الدين

جولة فى ملكوت الله

الكلمة التى ألقاها فضيلة الأستاذ الشيخ محمود جميلة مبعوث الأزهر إلى العراق بقاعة فيصل بمناسبة الاسراء وأذيعت على الشعب العراقى .

أيها السادة :

هذه ذكرى مجيدة نحييها ونحيبها ، لا مؤتسين ولا مقتدين ، ولا مبتدعين ولامخترعين ؛ ولكنها تذكرة للذاكرين وتنبيه للغافلين ، فان القلوب قد تحجرت والنفوس قدتمردت ؛ ولعلنا بذلك نحول الركب ونصحح الوضع ، ونستميل الأفئدة اللاهية ، والعقول النائية ، إلى هذه المجالس النافعة ، نتذاكر فيها الله ، ونتحدث عن رسول الله . والحديث عن رسول الله حديث شهى ؛ لأنه حديث عن الحق حديث عن النور ؛ حديث عن العلم ؛ حديث عن العدالة والمساواة ؛ حديث عن العظمة الانسانية التى لا تعتمد على منصب ولا جاه ، ولا ترتكز على مال وأهل .

أيها السادة :

لقد أسرى الله بعبده ونعم العبد ! أسرى به ليلامن المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى ، فكانت رحلة بين حرمين، وجولة بين مسجدين ، وسفرة بين قبلتين ، رافق فيها أمين أميناً ، وصاحب فيها كريم كريماً ، سارت النورانية الملكية فى ركاب البشرية القدسية ، فكان من ذلك ركب الله ، يتوجه إلى الله ، لافى مكان محصور ولا فى زمان مقدور ، ولم تكن الأرض إذ ذاك قد عرفت طائرة تقطع

الأجواء ، أو قاطرة تنهب الغبراء ، ولكنها عرفت من أبدع الأرض والسماء ، وأعطى كل شيء خلقه ثم هدى ، فهاهى ذي يد القدرة تحمل محمداً وركبه وتطوى بهم الفيافى والقفار وتتمثل العير، وتعرض الصور أمام الحضرة النبوية ليرى الرسول الأمين فى آيات ربه قيمة دعوته ، وخطر رسالته ، فيزداد رأفة ، ورحمة على رحمته فيلحف فى دعوته ، ويمعن فى حجته ، ويتفانى فى إنقاذ أمته ؛ «لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رءوف رحيم . فان تولوا فقل حسبى الله لا إله إلا هو عليه توكلت وهو رب العرش العظيم » . وفى بيت المقدس ، وفى ثالث بيت من بيوت الله التى تشد إليها الرحال ، وفى القبلة الأولى التى بدأت عليها الأمة ـ كان استقبال محمد استقبالا باهراً معجزاً ، سلم فيه العقل الحكم إلى النقل ، فهو وحده الفيصل ، ومنه نستمد الايمان ؛ «والنجم إذا هوى ، ما ضل صاحبكم وما غوى ، وما ينطق عن الهوى ، إن هو إلا وحى يوحى » وهنا تجلت الكرامات ، وبرزت المعجزات ، وأحيا الله الأموات ، وتقدم المصطفى على المصطفين وبدأت رحلة جديدة لم تشهدها البشرية منذ هبطت البشرية ، لا من أرض إلى أرض ، ولا من شرق إلى غرب ، وإنما هى من أرض إلى سماء .

رحلة كرم الله فيها الوالد فى شخص ولده ، فكانت تتميما للنعمة وتأكيداً للتوبة ، ومظهراً من مظاهر الرضى . لقد هبط آدم من عليائه لما نسى العهد وفقد العزم ، فظمىء وجاع وعرى وشقى ، وكان له ألا يجوع ولا يعرى ، ولا يظمأ ولا يضحى ؛ وصعد محمد إلى السماء ، فكان ذلك رمزاً لرفعة البشرية بعد هبوطها، وكمالها بعد ترجرجها .

أيها السادة :

نزل آدم عليه السلام إلى الأرض ، وصعد محمد إلى السماء ، وكلاهما قد قطع أجواز الفضاء ، واجتاز طبقات الهواء ، وقدرة المصيطر على الوجود تولت آدم

فى هبوطه كما تولت عمداً فى صعوده ، ولا خفة ولا كثافة أمام خالق الخفة والكثافة ، ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير .

عرج برسول الله وتدرج فى مراتب الكمال ، وأخذ ينتقل فى المنازل ويسمو فى الدرجات ، وسط مهرجان تفضلت به العناية الالهية ، شاركت فيه الأرض السماء والأموات الأحياء ؛ ولا زالت ترتفع به مكانته وتتقدم به منزلته، حتى وقف كل مخلوق ، وتنحى كل مرموق ، ورفعت الأستار ، وتكشفت الأسرار ، وظهرت الأنوار ، وتجلى الستار ، وفنى الحبيب فى الحبيب ، وكان وعى وكشف ، وصحوة ويقظة ، ثم دنا فتدلى ، فكان قاب قوسين أو أدنى ، وما زاغ البصر وما طغى . وهنا رأى وسمع ؛ رأى آيات ربه الكبرى ، وسمع كلام ربه الأعلى ، رؤية وسمعاً يليقان بالتنزيه والتكريم ، ويناسبان التسبيح والتعظيم . عند ذلك أوحى الله لعبده بعد أن أسرى بعبده ، فنعم العبد ، ونعم المعبود ! تكريم لم يصبه مخلوق ، وتقديس لم يصل اليه موجود ؛ فهو وحده الذى حظى بالحضرة ؛ وتمتع بالنظرة ؛ فنسى مشاق دعوته ؛ وخلاف أمته ، فكان ترفيها وتخفيفاً ، وتمجيداً وتقديساً .

أيها السادة :

فى هذا المقام الكريم ؛ وفى هذا الموقف الرهيب ؛ صدرت إرادة كريمة ؛ وأمر إلهى بتكليف الأمة بالصلاة وهى الناهية عن الفحشاء والمنكر ؛ وهى عماد الدين من أقامها فقد أقامه ؛ ومن هدمها هدمه ، فنالت الصلاة بذلك شرفا سبقت به غيرها من العبادات ، واعتزت به من بين سائر المأمورات ؛ أفيليق بعبد مؤمن بالله ومصدق بمحمد بن عبد الله أن يضيع الصلوات ويتبع الشهوات ! اللهم إن ذلك هو الخسران المبين .

بعد هذا تحرك الركب آيباً بعد هذا التكريم ، وقافلا بعد هذا التعظيم ، إلى مقره من البلد الحرام . فسبحانك اللهم سبحانك ! جلت قدرتك ، وعظم شأنك .

أيها السادة :

هذه منزلة رسولنا الكريم من رب العالمين ، فقد شرح الله صدره ؛ ووضع عنه وزره ، ورفع له ذكره ، وأيده بالمعجزات والخوارق ؛ وعلمه مالم يكن يعلم .

سيدى رسول :

قدمتك العناية الالهية ؛ والرحمة الربانية ؛ إلى البشرية الضالة ؛ والانسانية التائهة ؛ بين أرباب متفرقة ؛ ونظم متخلخلة ؛ وأصول متداعية ، لتقيم من أركانها وترفع من قواعدها ، وتأخذ بيدها إلى الطريق السوى ؛ قدمتك حراً طليقاً ترى الحق حقاً والباطل باطلا بصفاء فى نفسك ونور فى قلبك ، لم يغيره فيك قتامة محيطك وعتامة عصرك ؛ فقلت حقاً ، ونطقت صدقا ، وقد بلغت الرسالة ؛ وأديت الأمانة ؛ ورسمت للناس طريق الحق ، فلا عذر لمعتذر ولا حجة لجاحد ؛ بل لله الحجة البالغة « ليهلك من هلك عن بينة ويحيا من حى عن بينة » .

والآن وقد اجتمعنا لاحياء أعظم الليالى التى كانت لرسولنا الأكرم ؛ ونبينا الاجل — نضرع إلى الله العلى أن يوجه الامة لاحياء سنته وتأييد دعوته ؛ ونشر دينه ؛ وبث تعاليمه . عند ذلك يعود لنا عز سلبناه ؛ ومجد فقدناه ؛ وخلق جافيناه ويتحقق وعد الله « ولينصرن الله من ينصره ؛ إن الله لقوى عزيز » .

قبل أن أبرح مكانى هذا أتقدم إلى الشعب العراقى الكريم ؛ خصوصاً الجمعيات الدينية ؛ بشكرى وشكر إخوانى على ما حبانا به هذا الشعب من صنوف الاكرام ؛ لا لأشخاصنا ، ولكن لمعهدنا العزيز الذى غالب الأيام فغلبها ؛ وصارع القرون فصرعها ثم هو يحمل مشعل الاسلام ويقوم بتبليغ الدعوة ؛ وهو مفتوح الأبواب لكل مسلم يريد أن يرتشف من حياضه ، وأن ينهل من مورده . وسنبلغ تحية أهل العراق إلى من بالأزهر جميعاً من المسلمين ، سنبلغها إلى العراقى والمصرى والسورى والأردنى والحجازى والهندى والصينى والعجمى والسومالى والسودانى والجاوى والسنغالى والمغربى ؛ وإلى غيرهم ممن غاب عن الذاكرة وند عن الحافظة ؛ كل أولئك يحلون به مكانا سهلا ومنزلا كريماً . أمد الله فى حياة من يمد فى حياة الأزهر ووفق المسلمين للعمل بدينهم واتباع سنة نبيهم .

بلاغة القرآن

سمع أعرابى النبى صلى الله عليه وسلم يقرأ قوله تعالى : « فاصدع بما تؤمر وأعرض عن المشركين» فسجد الأعرابى ، فقيل له فى ذلك ، فقال: سجدت لفصاحته

وحكى الأصمعى أنه سمع بنتاً أعرابية فى السادسة تنشد :

أستغفر الله لذنبى كله قتلت إنسانا بغير حله
مثل غزال ناعم فى دله انتصف الليل ولم أصله

فقال لها : قاتلك الله ما أفصحك ! . فقالت : ويحك أيعد هذا فصاحة مع قول الله تعالى : « وأوحينا إلى أم موسى أن أرضعيه ، فاذا خفت عليه فألقيه فى اليم ، ولا تخافى ولا تحزنى ، إنا رادوه إليك وجاعلوه من المرسلين » فجمع فى آية واحدة بين أمرين ، ونهيين ، وبشارتين ! .

وسمع بعض العرب قارئاً يقول : «والله غفور رحيم» بدل «والله عزيز حكيم» فى آية : « والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما جزاء بما كسبا ، نكالا من الله ، والله عزيز حكيم » ولم يكن يقرأ القرآن ، فأنكر ذلك وقال : ليس هذا من كلام الله ، إذ الحكيم لا يذكر الغفران عند الزلل والعصيان ، لأنه إغراء عليه .

والقرآن معجز من كل نواحيه . ألفاظ جزلة ، معان فائقة ، أسلوب لم يكن ولن يمكن لأحد أن يجاريه ، أحكام باهرة ، إخبار بالغيب ، شفاء لما فى الصدور ، فهو معجزة الاسلام الخالدة ، وأنواره المشرقة اللامعة ، من سلك طريقه نجا ، ومن اعتصم به عصم ، ومن دعا إليه هدى إلى طريق مستقيم ، ومن التمس الهدى فى غيره خسر الدنيا والآخرة ، وذلك هو الخسران المبين .

ولقد اعترف باعجاز القرآن أعداؤه قبل متبعيه ، فان الوليد ابن المغيرة عم أبى جهل أعدى عدو للاسلام ، سمع مرة الرسول صلى الله عليه وسلم يقرأ شيئاً

من القرآن فقال لقومه بنى مخزوم . « والله لقد سمعت من محمد آنفا كلاما ما هو من كلام الانس ولا من كلام الجن ، وإن له لحلاوة ، وإن عليه لطلاوة ، وإن أعلاه لمثمرة ، وإن أسفله لمغدق ، وإنه يعلو وما يعلى عليه » .

ويكفى فى بيان إعجازه هذا التحدى للانس والجن ؛ فمنزله جل جلاله يقول : « قل لئن اجتمعت الانس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً » .

والقرآن أنزله الله هداية للناس ورحمة ، وهو قانون سماوى ، من عمل به سعد فى الدنيا والآخرة ، ومن أعرض عن اتباعه فان له معيشة ضنكا .

القرآن ربيع القلوب ، رفع الله به أمما تمسكت به ، واتخذته نبراساً تستضىء بنوره ، وخفض به أمما أهملته وتركته ، فاستعمرها قوماً آخرين ، وكتبها فى الأذلين

القرآن كتاب الخلود والمجد والعظمة . فعار على المسلمين أن يهملوا شأنه ولا يحفظوا له جلاله ؛ إن قرىء لم ينصتوا له ، ولم يتدبروا آياته ؛ إن جلسوا فى مجلسه لم يتأدبوا بآدابه . فهو ينهى عن الغيبة وهم يغتابون ، وينهى عن تدبير السوء للناس وهم يدبرون ، وهو يأمر بالبر والتقوى وصلة الأرحام وهم يخالفون أمره . اتخذه السلف الصالح سبيلا للعظمة والسيادة ، وجعله بعض الناس طريقاً للاستجداء والسؤال ، يقرءونه على أفاريز الطرق وفى مركبات الترامواى ، وعلى قبور الموتى ، يسألون به الناس ؛ وما لهذا أنزل القرآن ! . وإن مسئولية ذلك تقع على ولاة الأمور . واجب أن يحفظ للقرآن جلاله وجماله ، فتمنع الحكومة المتسولين الذين اتخذوه حرفة للشحاذة والاستجداء . واجب على الحكومة أن تمنع هؤلاء من قراءة القرآن على أفاريز الطرق وفى مركبات السيارات والقطارات والترامواى ؛ لأن هذا ينافى جلاله وجماله .

وكما يجب ذلك على الحكومة يجب على العلماء أن يبينوا للناس أن هذا لا يليق ؛ وأن من يعاون هؤلاء المرتزقة المتسولين بالقرآن يرتكب جرماً فى دينه

واعلموا أيها المسلمون أن القرآن لم ينزل للأموات ، إنما نزل للأحياء « لينذر من كان حيا » . فتنبهوا أيها المؤمنون واتقوا الله فى كتابه ، وخافوا يوماً يجعل الولدان شيبا .

هذا وإن مكاتب تحفيظ القرآن الكريم فى القرى كادت تنمحى ، والأمل الباقى فى جمعيات تحفيظ القرآن التى ينشئها أهل الخير فى المدن وبعض القرى . وإنى أنصح إخوانى الوعاظ وأئمة المساجد أن ينشطوا فى الدعوة للاكثار من هذه الجمعيات النافعة ، وليدخروا ثواب ذلك عند الله تعالى ، والله لا يضيع أجر من أحسن عملا ، وإلى عشاق القرآن الذين يرغبون أولادهم فى تعلمه أسوق هذا الحديث : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من قرأ القرآن ، وعمل بما فيه ، ألبس الله والديه تاجا يوم القيامة ضوؤه أحسن من ضوء الشمس فى بيوت الدنيا » . رواه أبو داود .

إلى حضرات المشتركين

قد اعتبر العدد العاشر من مجلة كنوز الفرقان لنهاية سنتها الأولى وقيمة الاشتراك السنوى ١٥٠ مليما يعادل ثمن ١٠ نسخ كل نسخة بمبلغ ١٥ مليما .

وبمناسبة ظهور العددين الأول والثانى من أعداد السنة الثانية ترجو إدارة المجله من حضرات المشتركين المبادرة الى إرسال الاشتراك الجديد باذن بريد باسمنا على مكتب بريد القاهرة — حتى لايفوتكم أى عدد من أعداد المجلة

وأرجو التفضل بقبول فائق الاحترام مدير مجلة كنوز الفرقان

على محمد الضباع

ملاحظه ـ توجد أعداد كامله من اعداد السنة الأولى لمن يطلبها ثمن المجموعة ١٥٠ مليما .

نزول القرآن للرد على أهل العداوة للرسول

يسر مجلة كنوز الفرقان أن تنشر تباعاً ابتداء من هذا العدد مقتطفات من كتاب المنهج المأمول للتعرف على خير رسول للأستاذ الشيخ أحمد السيد عبد الله إمام وخطيب مسجد الأستاذ البوصيرى بالاسكندرية ـ والمزمع طبعه قريباً ـ ونبدأ بأبيات الفصل الثالث من القسم الثانى من هذا الكتاب وهو الخاص بأصل نزول القرآن للرد على أهل العداوة لرسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه ، إلا عبد الله بن سلام ومخيريق .

الحمد لله إن الحمد في الكلم ... هو اللآلىء قد حيكت مع القلم

الحمد لله الذى أنشانا ونعّمنا ... بنور إيماننا بالله ذى القدم

سبحانه دلّنا بالمجتبى عما ... به الفلاح ونجّانا من الشجم

جاء الرسول فقلنا مرحباً أهلا ... أنت الرسول فدتك النفس من ألم

عند البيان رأيناه على حق ... فلم نجادل وصدّقنا بلا لغم

أليس ذا نعمة جلّت مفاخرها ... من العطايا جميعاً يا أولى الفهم

فالحمد لله حيث الله وفقنا ... لذلك الحال إن الله ذو كرم

دع اليهود جميعاً والمنافقين على ... جسر الجحيم يردّوا الخير بالبرم

داعى الإله يردّوا بعد معرفة ... بأنه مُرسَلٌ للخلق كلهم

عداوة أظهروها للنبي وما ... عن باعث غير حقد حزّ في الصمم

وأظهر الحب واحذر أن تقلدهم ... فيما أتوا من جدال زائد الرطم

بئس اليهود وبئس المنطوى معهم ... من آل أوْسٍ وطيٍ بل وغيرهم

إذا لقـوا مؤمنـاً قالوا له إنّـا ... معـاً فى رباط الدين والحـكم

فإن خلوا بيهود ضلَّ فى شطط ... قالوا له إننـا منكم فلا تـلم

لا شىء في أننـــا نأتى لمجلسه ... إنَّا نهزىء بل نغريه فى الـكلم

فهؤلاء أرادوا الشرَّ إذ بهمو ... فى الشر حلوا وجاء الخير كالعرم

فان قرآن ربى جاء يذكرهم ... بما بهم ويردُّ اللّبس عن فُهم

فاحـذر طريقهم واذكر بليتهم ... الموت حلَّ بهم والآن فى حطم

جميـع قرآننـا إلا القليـل أتى ... لردّ أفاكهم، قُبحاً لوصـفهم

قدناوشواالحق أماالزّور فاجتمعوا ... عليـه فى نشوة السكران بالرمم

هم المـلاعين فاسمعْ إسم بعضهم ... حىْ بن أخطب مشَّـاء مع الجرم

وجدٌّ وهو أخوه بل كذاك ومن ... يدعى أبو ياسر الكل فى الجحم

سلاَّم مجلٌّ لمشكمْ إنه رجس ... وابن الربيع كنانة عاشق الأثم

سـلاَّم آخر ذا إبن الحقيق له ... مع ابن جحاش عمرو مسبك الغُمم

وابن الربيع الربيع المتلى مكراً ... كذا أبو رافع بالأعـور اتَّسم

وابن الاشرف كعب ذاك من طيٍ ... وابنُ عمرو هو الحجاج ذو الوصم

وكُردم مجل قيس كلهم ألفوا ... بنى النضـير فبثـوا أعظم النقم

وابن صُوريا به التوراة ساكنة ... في الناس يدعى بعبد الله ذى اللغم

فبئس ما كان فيه من هوى نفس ... أرْداه وهو عليم فهو كالبُهم

كذاك ابن صلوبا كان يشبهه ... كذا مخيريق لـكن حاز للنعم

بحىّ مجل بنى الغيطون قد سكنوا ... وهم بنـــو ثعلبة تعْساً لدارهم

ابن اللصيت وذا زيد ويلحقه   سعد سليل حنيف موقد الضرم
ونجل سبحان محمود له وصف   من العناد مع المختار للأمم
أبو عزيز له ابن يقال له   عند الخطاب عزيز وهو فى الأدم
وابن صيف له ابن على سفهٍ   جرثومة الشرّ عبد الله فى الخصم
وابن قيس رفاعه زاد فى إفك   فنحاص أشيع بئس القوم فى الضيم
كذاك ابن أمنا نعمان بل وكذا   بحرى ذاك ابن عمرو يسار فى عتم
كذاك ابن عدىّ شاس بل وكذا   شماس بن قيس هما فى المكر كالصرم
نعمان ذاك ابن عمرو بل وابن أبى   سكين سكين كل من ذوى الظلم
ونجل زيد عدىّ ثم ابن أبى   أوفى المسمى بنعمان ذوى جحم
وابن دحية محمود ومالك ابـ   ـن من يدعى بالصيف إذ يسم
كعب بن راشد والمدعو بعازر وابـ   ـنّ أبو رافع ذا رافع الفحم
وخالد وابن آزر آزر وكذا   رفاعة نجل زيد ضل عن فهم
ومالك نجل عوف وابن حارثة   من اسمه رافع قد هام بالبرم
ورافع نجل من يدعى بخارجة   وابن تابوت ما مالا لمستقم
أما الحصين بن سلاّم فذاك له   من بعد حرن مقام الحق والعظم
فانه صار بعد الزيغ فى سبقٍ   إلى الهداية والعرفان للحكم
وتخيّر الاسم بعد الهدى سيدنا   محمد باسم عبد الله فى الرسم
وكل من ذُكروا من قبل إنهمو   من قينقاع بلاد الشرّ واللغم
ما كان منهم رشيد جاء متبعاً   رسولنا غير عبد الله ذى الوسم

(يتبع)